جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

قسم الكتاب والسنة

مذكرة بيداغوجية في مادة

التفسير الموضوعي

تخصص التفسير وعلوم القرآن

السنة الثالثة السداسي السادس

الدكتورة: حدّة سابق

2015

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين، ونصلي ونسلّم على أشرف المرسلين، وبعد:

تناول طلاب تخصص التفسير وعلوم القرآن في السنة الثانية مادة التفسير الموضوعي (دراسة نظرية من حيث التعريف والأنواع والمصادر)، بما يفي بالحاجة الماسة للطالب في هذا التخصص من الوقوف على طريقتهم في التأليف، وكذا تعاملهم مع كثير من المسائل والمباحث المتعلقة بالقرآن وعلومه.

وتتمة لهذا التسلسل المنهجي، كان لزاما أن يتناول الطلاب في السداسي السادس، الجانب العملي من مادة التفسير الموضوعي، والمتمثل في نماذج تطبيقية لجميع أنواعة التي تناولها العلماء، وذلك وفق المفردات الآتية:

محتوى مادة التفسير الموضوعي:

تتضمن مادة التفسير الموضوعي ثلاثة محاور:

المحور الأول: دراسة تطبيقية للنوع الأول من ألوان التفسير الموضوعي "المصطلح القرآني"، وتطبيقاته باستعمال مصادر غريب القرآن والوجوه والنظائر، "المفردات في غريب القرآن" للراغب الأصفهاني، والوجوه والنظائر للدامغاني.

المحور الثاني: دراسة تطبيقية للون الثاني من ألوان التفسير الموضوعي والمتمثل في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، وتطبيق ذلك في بعض مصادر التفسير التي تعني بهذا اللون من التفسير، البقاعي، سيد قطب، ...

المحور الثالث: دراسة تطبيقية للون الثالث من ألوان التفسير الموضوعي والمتمثل في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، وتناول بعض النماذج كعينة للدراسة.

أهم مصادر ومراجع المادة:

مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، دار القلم. دمشق، ط2 ، 1418هـ - 1997م.

المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد. دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط2، 1400هـ - 1991م

نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، دار بغدادي للطباعة، الرويبة، الجزائر

الوحدة الموضوعية في سورة مريم، حدة سابق، رسالة ماجستير، نوقشت سنة 2003 بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة

التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي.

التصاريف، يحي بن سلام

وجوه القرآن، الحيري

الوجوه والنظائر، الدامغاني.

الأشباه والنظائر، مقاتل.

نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي.

تصحيح الوجوه والنظائر، العسكري

بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي

تحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي

مناهج المفسرين لمنيع محمود

المفردات في غريب القرآن

نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، البقاعي.

في ظلال القرآن ، سيد قب.

التفسير أساسياته واتجاهاته، فضل حسن عباس، مكتبة، دنديس، الطبعة الأولى، 1426هـ. 2005م.

وغيرها من مصادر التفسير وعلوم القرآن ذات الصلة بمفردات المادة.

تمهيد - تعريف التفسير الموضوعي:

إن مصطلح "التفسير الموضوعي" ليس من المصطلحات القديمة النشأة، وإنما ولد في القرن الرابع عشر الهجري، إلا أنّ لبناته الأولى منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلّم، حين يسأل عن تفسير بعض الآيات[1]، فيفسرها بآيات أخرى من القرآن الكريم، فيتم بذلك تجميع مجموعة من آيات الموضوع الواحد في موضع واحد يفسر بعضها بعضا.

من ذلك:ما رواهالإمام البخاري عن النبيصلى الله عليه وسلم أنه فسر قوله تعالى:چئه ئه ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆچ[2]. فقال: مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ: چئا ئه ئه ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئد ىى ي يچ[3]»[4].

وتناوله الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد بالتعريف، فقال:«هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى وغاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها على هيئة مخصوصة، لبيان معناها، واستخراج عناصرها، ورباط بعضها ببعض ».[5]

فالدكتور سعيد قيد تعريف التفسير الموضوعي بقضايا القرآن الكريم، وهي الموضوع المتناول، وقد ضبطه بقوله:«القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها وجهة واحدة تجمعها عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة »[6].

وعلى هذا يكون تعريفه مخصوصا بلون واحد من ألوان التفسير الموضوعي، وهو الوحدة التجميعية فقط.معتبرا في ذلك وحدة المعنى والهدف.

وقد ذكر هذا التعريف الدكتور مصطفى مسلم ضمن عدة تعاريف لهذا اللون من التفسير، ورجح التعريف الذي يشمل لوني التفسير الموضوعي، فقال:«وقيل هو علم يتناول القضايا

---

(1)ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، دار القلم. دمشق، ط2 ، 1418هـ - 1997م، ص 17.

(2) الأنعام: 59.

(3) لقمان: 34.

(4) أخرجه البخاري، الصحيح، التفسير، باب "إن الله عنده علم الساعة"، 1793/4 ح 4499.

(5)المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد. دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط2، 1400هـ - 1991م، ص 20.

(6) المرجع نفسه، ص20.

حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر »[7]، ثم قال:«ولعل هذا التعريف الأخير هو الأرجح لخلوه من التكرار،ولإشارته إلى نوعيه الرئيسيين »[8].

واعتبار هذا اللون من التفسير منهجا أولى من اعتباره علما؛ لما يقتضي هذا الأخير الاستقلالية التامة عن غيره، والتفسير الموضوعي ليس كذلك.

وتعرض الشيخ محمد الغزالي لتعريف التفسير الموضوعي فتناوله من زاويتين تعتبر كل منهما لونا من ألوان التفسير الموضوعي.

أما الأول-« يتناول السورة كلها يحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها.

لقد عنيت عناية شديدة بالموضوع الواحد في السورة،وإن كثرت قضاياها»[9].

والثاني -« هو تتبع المعنى الواحد في طول القرآن وعرضه وحشده في سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس »[10].فالتعريف الأول باعتبار وحدة الموضوع في السورة، بينما الثاني باعتبار الوحدة التجميعية[11].

وللتفسير الموضوعي ألوان ثلاثة:

- التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.
- التفسير الموضوعي للموضوع القرآني.
- التفسير الموضوعي للسورة القرآنية[12].

---

(7)مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، ص 16.

(8)المصدر نفسه.

(9)نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، دار بغدادي للطباعة، الرويبة، الجزائر، ص 5.

(10) المرجعنفسه، ص 6

(11) ينظر: الوحدة الموضوعية في سورة مريم، حدة سابق، رسالة ماجستير، نوقشت سنة 2003 بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، ص 11 -12.

(12) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 23 - 29.

المبحث الأول – المصطلح القرآني وطريقة دراسته

المطلب الأول– تعريف المصطلح القرآني:

يقوم الباحث في هذا اللون بتتبع المفردة التي تكرر ورودهافي القرآن الكريم، ويجمع الآيات التي وردتفيها المفردة ومشتقاتها، ثم يرتبها ويلحظ اشتقاقاتها وتصريفاتها المختلفة، ثم ينظر فيها بتدبر،ويستخلص منها الدلالات القرآنية.

وكثير من المصطلحات تصلح لهذا اللون من التفسير الموضوعي، مثل: الأمة، الربا، المنافقون، وأهل الكتاب، الصدقة، والزكاة، وغيرها.[13]

وتعدّ كتب غريب القرآن، والوجوه والنظائر بمثابة اللبنات الأولى لهذا اللون من الدراسة،إلا أنّ الدراسة فيها« بقيت في دائرة دلالة الكلمة في موضعها. ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية»[14].

المطلب الثاني– خطوات دراسة المصطلح القرآني:

إن تناول المصطلح القرآني بالدراسة يتطلب اتّباع الخطوات الآتية:

1. إحصاء المصطلح في القرآن الكريم بجميع اشتقاقاته وتصريفاته.
2. مرحلة الدراسة المعجمية: وذلك لبيان المعنى الأصلي اللغوي لجذر المصطلح، وبيان ما إذا كان ذا مدلول لغوي واحد، أو متعدد، أو ذا مدلول لغوي، ومدلول استعمالي، وذلك باعتماد المعاجم اللغوية الأصيلة.
3. تحديد مدلول المصطلح في سياق الآية مع ما قبلها وما بعدها من آيات السورة الواحدة، ليتجلى بوضوح استعمال القرآن الكريم لهذا المصطلح في هذا الموضع أو

(13) المرجع نفسه، ص 23. وينظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، بتصرف، ص 59.

(14) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 23.

ذاك. ويستعان على ذلك بمصادر الوجوه والنظائر، والمعاجم اللغوية التي تعتني بهذا الجانب.

4. مرحلة الدراسة والربط بين الآيات التي ورد فيها المشتق الواحد للمصطلح، والبحث عن العلاقة الرابطة بين مختلف تلك المواضع، واستخلاص المفاهيم القرآنية والدلالات واللطائف من خلال ذلك.

المطلب الثالث – حاجة البحث في المصطلح القرآني من مصادر غريب القرآن والوجوه والنظائر

من خلال خطوات دراسة المصطلح القرآني المذكورة في المطلب السابق، يتبين لي جليا أن البحث في مثل هذا الموضوع يحتاج إلى أمهات كتب اللغة، ومصنّفات الوجوه والنظائر، التي تعدّ بحق الأساس الذي تبنى عليه الدراسة، وإذا ما أهملت تلك المصادر؛ فإنّ البحث ينتابه الخلل والنقص.

فمصنّفات الوجوه والنظائر تمد الدّارس بالوجوه السياقية المتعددة للمصطلح القرآني في مختلف المواضع التي ورد فيها في القرآن الكريم، ومن خلال تلك الوجوه يقوم الباحث بهيكلة بحثه، إلاّ أن هناك عددا من القضايا ينبغي ملاحظتها في تلك المصنفات:

1 – مصادر الوجوه والنظائر لا تركّز على حصر جميع الآيات القرآنية التي ورد فيها اللفظ؛ وإنما تركز على ذكر الوجوه السياقية المختلفة للفظ في القرآن الكريم، وتستشهد له ببعض الآيات فقط للدلالة على نظائرها في القرآن. فهي تحاول حصر المعاني السّياقية دون حصر الآيات.

لنأخذ مثالا على ذلك، كلمة "الضعيف"[15]، أقصى ما ذكر لها من آيات في مصادر الوجوه والنظائر ثلاث عشرة آية، بينما عدد الآيات التي ورد فيها هذا اللفظ، أو أحد مشتقاته اثنتان وخمسون آية[16].

---

(15) ينظر: التصاريف، ابن سلام، ص334-335. وجوه القرآن، الحيري، ص211-212.والوجوه والنظائر، الدامغاني، ص488-490. ونزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي،ص185-186.

أيضا كلمة "العزم"[17]، ذكروا لها ست آيات، بينما العدد الكامل للآيات التي ورد فيها هذا اللفظ تسع آيات.

أما إحصاء النظائر فيرجع فيها إلى المؤلفات الخاصة بها، مثل: "المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم" لمحمد فؤاد عبد الباقي.

2 – كما أنّ مؤلفي الوجوه والنظائر لم يتفقوا على وجوه الألفاظ القرآنية، ولا نظائرها، مما يستدعي الوقوف على كل مدونات هذا الفن لتكتمل الصورة، وتتضح الوجوه السياقية للمصطلح القرآني.

مثال ذلك كلمة "الصف"، أوردها بعض مؤلفي الوجوه والنظائر، وذكروا لها عدة وجوه سياقية:

الوجه الأول: – الجمع، فذلك في قوله تعالى:ﭽ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭼ[18]، وقوله تعالى:ﭽ ﯦ ﯧ ﯨﭼ[19].

فهذا الوجه ذكره مقاتل والحيري والعسكري والدامغاني، وابن الجوزي[20].

الوجه الثاني – الصف بعينه، فذلك في قوله تعالى: ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗﭼ[21]، يعني صف المؤمنين عند القتال. وقوله تعالى:ﭽ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﭼ[22]، يعني صفوف الملائكة يوم القيامة. وقوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒﭼ[23]، وقوله تعالى:ﭽ ﮑ ﮒ ﮓﭼ[24].

وهذا الوجه أورده من سبق ذكرهم في الوجه الأول بالإضافة إلى الفيروز آبادي[25].

---

(16) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، الطبعة1، 1417هـ 1996م، ص519، 520.

(17) ينظر: وجوه القرآن، الحيري، تحقيق جلال الأسيوطي، ص314.

(18) الكهف: 48.

(19) طه: 64

(20) ينظر: الأشباه والنظائر، مقاتل، ص164. وجوه القرآن، الحيري، ص203.والوجوه والنظائر، العسكري، ص279، والوجوه والنظائر، الدامغاني، ص 462. ونزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي،ص174.

(21) الصف: 4

(22) الفجر: 22

(23)الصافات: 01

(24) الصافات: 125

وانفرد الفيروز آبادي عنهم في هذا الوجه بالآيات الآتية: قوله تعالى:ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔﭼ[26]. وقوله تعالى: ﭽ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿﭼ[27]،بمعنى صفوف أَهل التَّوحيد في روضات الجنَّات. وقوله تعالى:ﭽ ﮉ ﮊ ﭼ[28]،بمعنى صفوف المرَافق والنّمارق.

الوجه الثالث – قياما[29]، فذلك في قوله تعالى:ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔﭼ[30]. انفرد بهذا الوجه أبو هلال العسكري، وقال: « فالمراد أنها قائمة قد صفت بدنها، ولم يرد أنها مصطفة؛ لإجماع الناس أنها يجوز نحرها غير مصطفة. أما السنة في نحر الإبل أن تنحر قائمة، وفي قوله: ﭽ ﯙ ﯚ ﯛ ﭼ[31]،ما يدل على أنه أراد بالصواف القيام؛ لأنها إذا كانت باركة فنحرت فانقلبت على جنب، لم يقل: أنها سقطت لجنبها»[32].

الوجه الرابع – المصلى، وذلك في قوله تعالى:ﭽ ﯨ ﯩ ﯪﭼ[33]، ذكره الفيروز آبادي[34].

الوجه الخامس – المستوِى من الأَرض:ﭽ ﮓ ﮔ ﮕﭼ[35]،والأَصل صَفَّفا، لكن لما توالت ثلاث فاءَات جعلوا الأَوسط صادا. ذكره أيضا الفيروز آبادي[36].

---

(25) ينظر: الأشباه والنظائر، مقاتل، ص164. وجوه القرآن، الحيري، ص203.وتصحيح الوجوه والنظائر، العسكري، ص279، والوجوه والنظائر، الدامغاني، ص 462. وبصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي418/3.ونزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي،ص174.

(26) الحج: 36

(27) الطور: 20

(28) الغاشية: 15

(29) ينظر: تصحيح الوجوه والنظائر، العسكري، ص280.

(30) الحج: 36

(31) الحج: 36.

(32) تصحيح الوجوه والنظائر، العسكري، ص280.

(33) طه: 64.

(34) ينظر: بصائر ذوى التمييز،418/3.

(35) طه: 106.

(36) ينظر: بصائر ذوى التمييز،419/3.

إذا فالوجوه السياقية غير متفق عليها، فكل واحد من هؤلاء الأئمة ذكر ما توصل إليه باجتهاده، وقد يعارض غيره في توجيه معنى الكلمة في الآية, فلابد من ملاحظة هذا الأمر، فالعسكري خالف غيره في توجيه كلمة "صواف" في قوله تعالى:ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔﭼ. وخالف الفيروز آبادي في توجيه "صفا" في قوله تعالى:ﭽ ﯽ ﯾ ﯿﭼ.

3 – مؤلفات الوجوه والنظائر لم تعتن بإبراز العلاقة بين الوجوه السياقية للفظ في المواضع المختلفة من القرآن الكريم، واكتفت ببيان المعاني السياقية للألفاظ، إلاّ ما كان من بعضها التي اعتنت بالمعاني الأصلية للألفاظ إلى جانب المعاني السياقية[37].

مثال ذلك: قول الإمام ابن الجوزي باب "اللسان":«اللسان : العضو المعروف في الفم وهو آلة النطق . ويقال لمنأجاد الكلام به: لسن، واللسن: الفصاحة.

وذكر بعض المفسرين أن اللسان في القرآن على أربعةأوجه:

أحدها: اللسان بعينه، ومنه قوله تعالى في الفتح:ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﭼ[38]،وفي القيامة:ﭽ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﭼ[39]، وفي البلد:ﭽ ﮛ ﮜ ﮝ ﭼ[40].

والثاني: اللغة، ومنه قوله تعالى في إبراهيم:ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﭼ[41]، وفي النحل:ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠﭼ[42].

والثالث: الدعاء، ومنه قوله تعالى في المائدة:ﭽ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭼ[43]،أي:في دعائها .

والرابع: الثناء الحسن، ومنه قوله تعالى في الشعراء:ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ[44]»[45].

---

(37)مثل: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وتصحيح الوجوه والنظائر لأبي هلال العسكري، وتحصيل نظائر القرآن، للحكيم الترمذي، ونزهة الأعين النواظر لابن الجوزي، وبصائر ذوى التمييز للفيروز آبادي.

(38) الفتح: 11.

(39) القيامة: 16.

(40) البلد: 09.

(41) إبراهيم: 04.

(42) النحل: 103.

(43) المائدة: 78.

(44) الشعراء: 84.

ففي هذا النموذج ذكر الإمام ابن الجوزي، الأصل اللغوي لكلمة اللسان، ومعانيه السياقية الواردة في القرآن الكريم، ولم يتعرض إلى أوجه العلاقة بين تلك المعاني السياقية، ولا المدلولات واللطائف المستوحاة من تلك الآيات.

كما أن الإمام ابن الجوزي ذكر سبع آيات من أصل خمس وعشرين آية ذكر فيها لفظ اللسان في القرآن الكريم[46].

4 – ومما ينبغي ملاحظته أيضا أن مصنفات الوجوه والنظائر، لم تعتن بتصنيف الوجوه حسب الاشتقاقات والتصريفات، بل حسب المدلول السياقي، فقد يذكر أحدهم في الوجه الواحد عدّة آيات، يختلف اشتقاق اللفظ في كل واحدة منها.

مثال ذلك:

قال الإمام ابن الجوزي في باب "النسيان":«...وذكر بعض أهل التفسير أن النسيان في القرآن علىوجهين:

أحدهما: الترك مع العمد، ومنه قوله تعالى في البقرة:ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭼ[47]... وفيها: ﭽ ﺋ ﺌ ﯼ ﯽﯾ ﭼ[48]، وفي طـه:ﭽ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭼ[49]، وفي السجدة :ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﭼ[50].

والثاني: خلاف الذكر، ومنه قوله تعالى في الكهف: ﭽ ﭝ ﭞ ﭟ ﭼ[51]، وفيها:ﭽ ﯽ ﯾ ﯿ ﭼ[52]، وفي الأعلى:ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﭼ[53]»[54].

---

(45) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ص255.

(46) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص746 - 747.

(47) البقرة: 106.

(48) البقرة: 237.

(49) طه: 115.

(50) السجدة: 14.

(51) الكهف: 63.

(52) الكهف: 73.

(53) الأعلى: 06.

(54) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ص280.

ففـي الوجـه الأول: اسـتعمل تصـريفات مختلفـة للنسـيان؛ في الماضـي: چڤ چچچچ، وفي المضارع: چپ چ، چ ئد چ.

وفي الوجه الثاني: استعمل تصريفات مختلفة أيضا: في الماضي: چٹچ، وفي المضارع:چؤ چ.

المطلب الرابع – دراسة نماذج من بعض مصادر غريب القرآن والوجوه والنظائر

أولا – المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني:

كتاب المفردات يتحدث فيه عن مفردات القرآن: يتتبع اللفظ فى الآيات القرآنية متحدثا عن مفاهيمه فى مختلف المواضع مستأنسا على ذلك بالحديث الشريف أو بأشعار العرب، وقد أجاد إجادة تامة فى الوصول إلى غايته وهى تفسير ألفاظ القرآن.

وقد رتب كتابه على ترتيب الحروف الهجائية، وذلك ليسهل الكشف فيه[55].

وذكر الراغب في مقدمة متابه أن " أول ما يحتاج أن يشتغل به العلوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفرقة فتحصيل معانى مفردات ألفاظ القرآن فى كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبن فى كونه من أول المعاون فى بناء ما يريد أن يبنيه وليس ذلك نافعا فى علم القرآن فقط بل هو نافع فى كل علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن هى لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء فى احكامهم وحكمهم وإليها مفزع حذاق الشعر والبلغاء فى نظمهم ونثرهم وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، والحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة"[56].

ثانيا– الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز للدامغاني (ت478هـ):

اختلف المترجمون للإمام الدامغاني في تسمية كتابه في الوجوه والنظائر، فمنهم من ذكره بعنوان "الوجوه والنظائر". ومنهم من ذكره بعنوان "الزوائد والنظائر وفوائد البصائر"، وذكر له

---

(55) ينظر: مناهج المفسرين لمنيع محمود، ص: 139.

(56) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص:06).

البابانی عنوانین، فقال: "من تصانیفه: "الزوائد والنظائر وفوائد البصائر" في القرآن، ویسمی أیضاً "الوجوه والنظائر" في مجلد".

والعنوان الأرجح حسب ما ورد في عدد من النسخ هو "الوجوه والنظائر" إذ ورد مطلقا في نسختین، ومقیدا بـ "ألفاظ کتاب الله العزیز" في نسختین أیضا.

– وقام بتحقیق الکتاب لأستاذ عبد العزیز سید الأهل، نشر بدار العلم للملایین، بعنوان "قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الکریم".

– ثم حققته کتاب الدامغاني الباحثة فاطمة یوسف الخیمي، بعنوان: "الوجوه والنظائر لألفاظ کتاب الله العزیز ومعانیها". نشرته مکتبة الفارابي بدمشق سنة (1998 – 1419ه)، واعتمدت فیه المحققة على ثلاث نسخ خطیة مختلفة المشارب، والنسخة المطبوعة لکتاب الدامغاني للأستاذ عبد العزیز سید الأهل.

– ثم حققه الأستاذ محمد حسن أبو العزم الزّفیتي، بعنوان "الوجوه و النظائر لألفاظ کتاب الله العزیز"، نشر بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامیة بوزارة الأوقاف المصریة، سنة (2008م – 1429ه)، واستند فیه المحقق إلى ست نسخ خطیة.

– ثم حققه أیضا عربي عبدالحمید علي،نشرته منشورات ابن بیضون في بیروت، عام (1424ه – 2003م) على نسخة خطیة واحدة. ولم أقف على هذه النشرة.

ثانیا – مسلك الإمام الدامغاني في کتابه:

1– عدد ألفاظ کتابه:رأى الإمام الدامغاني قصورا في جهود سالفیه في تتبع الألفاظ القرآنیة وحصرها، مما فوّت علیهم کمّا هائلا من الکلمات التي تندرج ضمن هذا الموضوع، وهذا ما أکده في دیباجة کتابه بقوله: «إني تأملت کتاب وجوه القرآن لمقاتل ابن سلیمان وغیره، فوجدتهمأغفلوا أحرفا من القرآن لها وجوه کثیرة، فعمدت إلى عمل کتاب مشتمل على ما صنفوه وماترکوا منه، وجعلته مبوبا على حروف المعجم لیسهل على الناظر فیه مطالعته وعلى المتعلم حفظه».[57]

فاستوعب بذلك الألفاظ التي ذکرها مقاتل بن سلیمان، موافقا إیّاه في وجوه کثیرة منها، ومخالفا له في عدد غیر یسیر، وغالبا ما تکون المخالفة بزیادة وجوه لم یذکرها مقاتل. فقد

(57) الوجوه والنظائر لألفاظ کتاب الله العزیز ومعانیها، الدامغاني، تحقیق: فاطمة یوسف الخیمي، ص01.

بلغت الكلمات التي زاد لها وجوها واحدا وأربعين كلمة[58]، في حين بلغ عدد الكلمات التي أنقص من وجوهها سبع كلمات فقط[59].

كما أن عدد الكلمات التي ضمها الدامغاني بين دفتي كتابه هي (520) كلمة، أي بفارق (335) كلمة بينه وبين كتاب مقاتل بن سليمان. وهذا الكم الهائل من الكلمات لم يسبقه فيه إلا إسماعيل الحيري الذي ضمّن كتابه (613) كلمة.

قال الدكتور القرعاوي:«وقد قمت بإحصاء عدد الألفاظ والوجوه فوجدت أن عدد الألفاظ إحدى وثلاثين وخمسمائة، وعدد الوجوه ألفين وأربعمائة وثمان وستين تقريبا»[60].

وهذا يخالف ما توصلت إليه من أن عدد ما في كتابه من ألفاظ (520) كلمة، وهذا الاختلاف بين الرقمين، يعود إلى اختلاف الطبعات المعتمدة في العدّ، فالدكتور القرعاوي اعتمد الطبعة التي حققها عبد العزيز سيد الأهل، بينما اعتمدت أنا الطبعة التي حققتها فاطمة يوسف الخيمي.

2 – ترتيب ألفاظ الكتاب: أبان الدامغاني في مستهل كتابه على طريقة ترتيب الألفاظ الواردة فيه، فقال:«...وجعلته مبوبا على حروف المعجم ليسهل على الناظر فيه مطالعته وعلى المتعلم حفظه»[61].

فهو مع اقتفائه طريقة ترتيب مادة كتابه على حروف المعجم تسهيلا على المتتبع، إلا أنه يلاحظ على ترتيبه اكتفاءه بالحرف الأول دون النظر إلى الحرف الثاني للفظ. كما قدّم حرف الواو على حرف الهاء في ترتيب الألفاظ.

3 – طريقته في التبويب:بالإضافة إلى ما سبق ذكره، نجده جعل كل حرف بابا مستقلا عن غيره، مثل: باب الهمزة، باب الباء، باب التاء، باب الثاء..إلخ. ويذكر في كل باب من

---

(58) هذه الكلمات هي: في، الإخاء، الأرض، الأمر، الآية، الاتّباع، الجدال، الجهل، الحرب، الأحزاب، الحساب، الحق، الدعاء، الرؤية، الرجم، الرجاء، الروح، السبيل، السكن، الإسلام، السيئات، السير، الشهيد، الصدق، صرف، الصلاح، الصيحة، الضرّ، الضعيف، الظلم، الظلمات، الظن، التفصيل، القليل، اللقاء، الإنذار، النفس، النار، الأحد، اليد، اليوم.

(59) هذه الكلمات هي: إلى، الضرب، الفتح، الكبير، الكلام، الهدى، التقوى.

(60) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة، سليمان القرعاوي، ص80.

(61) الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: فاطمة يوسف الخيمي، ص 01.

تلك الأبواب الألفاظ الواردة فيه بصفة مجملة، ثم يفصل فيها لفظا لفظا دون مرعاة الحرف الثاني لتلك الألفاظ، فتجده مثلا: في باب الهمزة رتب الألفاظ كالآتي: (اسم، ثم أمر، أحد"، أحاط، أحصى، استحياء... وهكذا)، وفي باب الشين:رتب الألفاظ كالآتي: (الشرك، الشقاق، الشكر، شيعا، الشيطان، الشجر، الشقاء، الشفاء، الشفاعة، الشطط، الشهداء، الشهادة والأشهاد، الشري، الشدة، الشديد والأشد، الشراب والشرب، الشوى)دون اعتبار الحرف الثاني للكلمات، ثم أخذ يفصل فيها على هذا الترتيب. وهكذا في جميع الحروف(62).

وفي كل لفظ يورده يذكر عدد وجوهه ويبينها إجمالا قبل تفصيلها، فمثلا يقول: "تفسير التأويل على خمسة أوجه: الملك، العاقبة، التعبير، التحقيق، اللون"(63).

ثالثا – نماذج من الكتابين:

1 – الشرك:

قال الراغب: "الشِّرْكَةُ والْمُشَارَكَةُ: خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدا، عينا كان ذلك الشيء، أو معنى، كَمُشَارَكَةِ الإنسان والفرس في الحيوانيّة، ومُشَارَكَةِ فرس وفرس في الكمتة، والدّهمة، يقال: شَرَكْتُهُ، وشَارَكْتُهُ، وتَشَارَكُوا، واشْتَرَكُوا، وأَشْرَكْتُهُ في كذا. قال تعالى: [وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي][طه/ 32]، وفي الحديث: «اللهمّ أَشْرِكْنَا في دعاء الصّالحين». وروي أنّ الله تعالى قال لنبيّه عليه السلام: «إنّي شرّفتك وفضّلتك على جميع خلقي وأَشْرَكْتُكَ في أمري» أي: جعلتك بحيث تذكر معي، وأمرت بطاعتك مع طاعتي في نحو: [أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ] [محمد/ 33] ، وقال تعالى: [أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ][الزخرف/ 39]. وجمع الشَّرِيكِ شُرَكاءُ. قال تعالى: [وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ] [الإسراء/ 111] ، وقال: [شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ][الزمر/ 29] ، [أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ] [الشورى/ 21] ، وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ [النحل/ 27] .

(62) المصدر نفسه، ص 438.

(63) المصدر نفسه، ص 187.

وشِرْكُ الإنسان في الدّين ضربان:

أحدهما: الشِّرْكُ العظيم، وهو: إثبات شريك لله تعالى. يقال: أَشْرَكَ فلان بالله، وذلك أعظم كفر. قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ][النساء/ 48] ، وقال: [وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً][النساء/ 116] ، [ومَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ] [المائدة/ 72]، [يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً] [الممتحنة/ 12] ، وقال: [سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا][الأنعام/ 148] .

والثاني: الشِّرْكُ الصّغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرّياء والنّفاق المشار إليه بقوله: [جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ][الأعراف/ 190] ، [وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ] [يوسف/ 106] ، وقال بعضهم: معنى قوله [إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ]أي: واقعون في شرك الدّنيا، أي: حبالتها، قال: ومن هذا ما قال عليه السلام:«الشّرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النّمل على الصّفا». قال: ولفظ الشِّرْكِ من الألفاظ المشتركة، وقوله تعالى: [فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً] [الكهف/ 110] ، محمول على الشّركين، وقوله: [فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ][التوبة/ 5] ، فأكثر الفقهاء يحملونه على الكفّار جميعا. كقوله: [وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ... الآية] [التوبة/ 30] ، وقيل: هم من عدا أهل الكتاب، لقوله: [إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصارى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا] [الحج/ 17] ، أفرد الْمُشْرِكِينَ عن اليهود والنّصارى"[(64)].

وقال الدامغاني:" شرك على ثلاثة أوجه:الشرك بالله تعالى، الشرك في الطاعة، الرياء.

فوجه منها: الشرك بالله تعالى وهو أن يعدل به غيره قوله تعالى في سورة النساء [واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً] أي لا تعدلوا به سواه كقوله سبحانه (فيها) [إن الله لا يغف أن يشرك به] " مثلها (فيها) وفي سورة براءة [إن الله بريء من المشركين ورسوله] يعني الذي يعدلون به غيره.

الثاني: الشرك في الطاعة من غير عبادة قوله تعالى في سورة الأعراف: [فلما آتاهما صالحاً جعلاً له شركاء فما آتاهما] أي جعلا إبليس شريكاً مع الله سبحانه كقول إبليس في إبراهيم [إني كفرت بما أشركتمون من قبل] .

---

(64) المفردات في غريب القرآن (ص:451– 453).

الثالث: الشرك الرياء قوله سبحانه في سورة الكهف [ولا يشرك بعبادة رب أحداً] يعني و لا يرائي ونظيره كثير"[65].

2 – مادة:عرف:

قال الراغب الأصفهاني: "المَعْرِفَةُ والعِرْفَانُ: إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأثره، وهو أخصّ من العلم، ويضادّه الإنكار، ويقال: فلان يَعْرِفُ اللهَ ولا يقال: يعلم الله متعدّيا إلى مفعول واحد، لما كان مَعْرِفَةُ البشرِ لله هي بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال: الله يعلم كذا، ولا يقال: يَعْرِفُ كذا، لما كانت المَعْرِفَةُ تستعمل في العلم القاصر المتوصّل به بتفكّر، وأصله من: عَرَفْتُ. أي: أصبت عَرْفَهُ. أي:رائحتَهُ، أو من أصبت عَرْفَهُ. أي: خدّه، يقال:

عَرَفْتُ كذا. قال تعالى: [فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا][البقرة/ 89]، [فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ] [يوسف/ 58]، [فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ]، [محمد/ 30] ،[يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ] [البقرة/ 146]. ويضادّ المَعْرِفَةُ الإنكار، والعلم الجهل. قال: [يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها] [النحل/ 83] ، والعَارِفُ في تَعَارُفِ قومٍ: هو المختصّ بمعرفة الله، ومعرفة ملكوته، وحسن معاملته تعالى، يقال: عَرَّفَهُ كذا. قال تعالى:[عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ][التحريم/ 3] ، وتَعَارَفُوا: عَرَفَ بعضهم بعضا. قال: [لِتَعارَفُوا][الحجرات/ 13] ، وقال:[يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ][يونس/ 45] ، وعَرَّفَهُ:جعل له عَرْفاً. أي: ريحا طيّبا. قال في الجنّة: [عَرَّفَها لَهُمْ][محمد/ 6]، أي: طيّبها وزيّنها لهم، وقيل: عَرَّفَهَا لهم بأن وصفها لهم، وشوّقهم إليها وهداهم. وقوله: [فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ][البقرة/ 198] ، فاسم لبقعة مخصوصة، وقيل: سمّيت بذلك لوقوع المعرفة فيها بين آدم وحوّاء، وقيل: بل لِتَعَرُّفِ العباد إلى الله تعالى بالعبادات والأدعية.

والمَعْرُوفُ:اسمٌ لكلّ فعل يُعْرَفُ بالعقل أو الشّرع حسنه، والمنكر: ما ينكر بهما. قال: [يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ] [آل عمران/ 104] ، وقال تعالى: [وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ] [لقمان/ 17] ، [وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً] [الأحزاب/ 32] ، ولهذا قيل للاقتصاد في الجود:

مَعْرُوفٌ، لما كان ذلك مستحسنا في العقول وبالشّرع. نحو: [وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ] [النساء/ 6] ، [لَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ] [النساء/ 114] ، [وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ][البقرة/ 241] ، أي: بالاقتصاد والإحسان، وقوله: [فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ

---

(65) قاموس القرآن للدامغاني (ص: 262 – 263)

بِمَعْرُوفٍ] [الطلاق/ 2] ، وقوله: [قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ][البقرة/ 263] ، أي: ردّ بالجميل ودعاء خير من صدقة كذلك، والعُرْفُ: المعْرُوفُ من الإحسان، وقال: وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ[الأعراف/ 199] . وعُرْفُ الفرسِ والدّيك مَعْرُوفٌ، وجاء القطا عُرْفاً. أي: متتابعة. قال تعالى: [وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً][المرسلات/ 1] ، والعَرَّافُ كالكاهن إلّا أنّ العَرَّافَ يختصّ بمن يخبر بالأحوال المستقبلة، والكاهن بمن يخبر بالأحوال الماضية، والعَرِيفُ بمن يَعْرِفُ النّاسَ ويُعَرِّفُهُمْ، قال الشاعر: بعثوا إليّ عَرِيفَهُمْ يتوسّم.

وقد عَرُفَ فلانٌ عَرَافَةً: إذا صار مختصّا بذلك، فالعَرِيفُ: السّيدُ المعروفُ قال الشاعر:

بل كلّ قوم وإن عزّوا وإن كثروا ... عَرِيفُهُمْ بأثافي الشّرّ مرجوم.

ويومُ عَرَفَةَ يومُ الوقوفِ بها، وقوله: [وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ][الأعراف/ 46] ، فإنه سور بين الجنّة والنار، والاعْتِرَافُ: الإقرارُ، وأصله: إظهار مَعْرِفَةِ الذّنبِ، وذلك ضدّ الجحود. قال تعالى: [فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ] [الملك/ 11] ، [فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا][غافر/ 11] "[66].

وقال الدامغاني: "ع ر ف على أربعة أوجه: القرض، تزين المراة بعد العدة، العدة، الحسنة، قدرة الرجل.

فوجه منها: القرض قوله تعالى في سورة النساء، [و من كان غنيا فليستعفف و من كان فقيرا فلياكل بالمعروف] يعني بالقرض، نظيرها فيها [لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف] يعني القرض.

الثاني: المعروف أن تتزين المراة بعد انقضاء عدتها، قوله سبحانه في سورة البقرة [فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما بلغن في انفسهن من معروف].

الثالث: المعروف هي العدة الحسنة قوله تعالى في سورة البقرة: [و لا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء إلى قوله تعالى الا ان تقولوا قولا معروفا] يعني عدة حسنة، كقوله سبحانه فيها: [قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبها أذى] أي عدة حسنة. كقوله تعالى في سورة النساء [و قولوا قولا لهم قولا معروفا].

---

(66) المفردات في غريب القرآن (ص:560 - 562)

الرابع: النفقة على قدر ميسور الرجل، قوله تعالى في سورة البقرة [و للمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين] أي على قدر ميسور الرجل و قال تعالى فيها[وعلى المولود له رزقهن و كسوتهن بالمعروف] أي على قدر ميسور الرجل[67].

3 – مادة ذكر:

قال الراغب الأصفهاني: "الذِّكْرُ: تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلّا أنّ الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل:

الذّكر ذكران:ذكر بالقلب.وذكر باللّسان.وكلّ واحد منهما ضربان:

ذكر عن نسيان.

وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ. وكلّ قول يقال له ذكر، فمن الذّكر باللّسان قوله تعالى: [لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ] [الأنبياء/ 10]، وقوله تعالى: [وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ] [الأنبياء/ 50]، وقوله:[هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي] [الأنبياء/ 24]، وقوله: [أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا] [ص/ 8] ، أي: القرآن، وقوله تعالى: [ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ] [ص/ 1] ، وقوله: [وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ] [الزخرف/ 44] ، أي: شرف لك ولقومك، وقوله: [فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ] [النحل/ 43] ، أي: الكتب المتقدّمة.

وقوله [قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا] [الطلاق/ 10- 11] ، فقد قيل: الذكر هاهنا وصف للنبيّ صلّى الله عليه وسلم، كما أنّ الكلمة وصف لعيسى عليه السلام من حيث إنه بشّر به في الكتب المتقدّمة، فيكون قوله: (رسولا) بدلا منه.

وقيل: (رسولا) منتصب بقوله (ذكرا) كأنه قال: قد أنزلنا إليكم كتابا ذكرا رسولا يتلو، نحو قوله: [أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً] [البلد/ 14- 15] ، ف (يتيما) نصب بقوله (إطعام) .

ومن الذّكر عن النسيان قوله: [فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ] [الكهف/ 63]، ومن الذّكر بالقلب واللّسان معا قوله تعالى: [فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً] [البقرة/ 200]، وقوله: [فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَاذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ][البقرة/ 198] ، وقوله: [وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ] [الأنبياء/ 105] ، أي: من بعد الكتاب المتقدم.

---

(67) قاموس القرآن للدامغاني (ص: 221- 323)

وقوله [هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً] [الدهر/ 1] ، أي: لم يكن شيئا موجودا بذاته، وإن كان موجودا في علم الله تعالى.

وقوله: [أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ] [مريم/ 67] ، أي: أولا يذكر الجاحد للبعث أوّل خلقه، فيستدلّ بذلك على إعادته، وكذلك قوله تعالى: [قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ] [يس/ 79] ، وقوله: [وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ] [الروم/ 27]، وقوله:[وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ] [العنكبوت/ 45] ، أي:ذكر الله لعبده أكبر من ذكر العبد له، وذلك حثّ على الإكثار من ذكره. والذِّكْرَى: كثرة الذّكر، وهو أبلغ من الذّكر، قال تعالى: [رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ] [ص/ 43] ، [وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ] [الذاريات/ 55] ، في آي كثيرة. والتَّذْكِرَةُ: ما يتذكّر به الشيء، وهو أعمّ من الدّلالة والأمارة، قال تعالى: [فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ] [المدثر/ 49] ، [كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ] [عبس/ 11] ، أي: القرآن.

وذَكَّرْتُهُ كذا، قال تعالى: [وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ] [إبراهيم/ 5] ، وقوله: [فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى] [البقرة/ 282] ، قيل: معناه تعيد ذكره، وقد قيل: تجعلها ذكرا في الحكم . قال بعض العلماء في الفرق بين قوله: [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] [البقرة/ 152] ، وبين قوله: [اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ] [البقرة/ 40] : إنّ قوله: فَاذْكُرُونِي مخاطبة لأصحاب النبي صلّى الله عليه وسلم الذين حصل لهم فضل قوّة بمعرفته تعالى، فأمرهم بأن يذكروه بغير واسطة، وقوله تعالى: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ مخاطبة لبني إسرائيل الذين لم يعرفوا الله إلّا بآلائه، فأمرهم أن يتبصّروا نعمته، فيتوصّلوا بها إلى معرفته. والذَّكَرُ: ضدّ الأنثى، قال تعالى:

[وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى] [آل عمران/ 36]، وقال: [آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ] [الأنعام/ 144] ، وجمعه: ذُكُور وذُكْرَان، قال تعالى: [ذُكْراناً وَإِناثاً] [الشورى/ 50] ، وجعل الذَّكَر كناية عن العضو المخصوص.

والمِذْكِرُ: المرأة التي ولدت ذكرا، والمِذْكَار:

التي عادتها أن تذكر، وناقة مُذَكَّرَة: تشبه الذّكر في عظم خلقها، وسيف ذو ذُكْرٍ، ومُذَكَّر: صارم، تشبيها بالذّكر، وذُكُورُ البقل: ما غلظ منه. "[68].

(68) المفردات في غريب القرآن (ص: 328-329)

وقال الدامغاني: "ذ ك ر على ثمانية عشر وجهاً: العمل الصالح، الذكر باللسان، الذكر بالقلب، الذكر على الأمر، والقصة، الحفظ، العظة، الشرف، الخبر، الوحي القرآن، التوراة، اللوح المحفوظ، البيان، التفكر، الصلوات الخمس، صلاة واحدة، التوحيد، الرسول.

فوجه منها: الذكر يعني به العمل الصالح قوله تعالى في سورة البقرة: [فاذكروني أذكركم] يعني اذكروني بالطاعة أي أطيعوني.

الثاني : الذكر باللسان، قوله تعالى في سورة النساء [فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله] يعني باللسان. [قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم]. وكقوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة[فاذكروا الله كذكركم آباءكم] يعني الذكر باللسان، كقوله تعالى في سورة الأحزاب[يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً] يعني باللسان .

الثالث : الذكر بالقلب، قوله تعالى في سورة آل عمران [والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا] يعني ذكروا الله في أنفسهم.

الرابع: الذكر بمعنى اذكر أمري عند فلان، قوله عز وجل في سورة يوسف [اذكرني عند ربك] يقول اذكر أمري عند الملك. وقوله تعالى في سورة مريم: [واذكر في الكتاب إبراهيم] يقول يا محمد اذكر لأهل مكة أمر إبراهيم وكذلك أمر موسى ومريم وإسماعيل وإدريس (في نظائرها).

الخامس: الذكر بمعنى الحفظ قوله تعالى في سورة البقرة: [خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه] يعني واحفظوا نظيرها في سورة الأعراف.

السادس: الذكر بمعنى العظة قوله تعالى في سورة الأنعام[فلما نسوا ما ذكروا به] أي ما وعظوا به نظيرها في سورة الأعراف، كقوله تعالى في سورة يس[أئن ذكرتم] يعني وعظتم، وكقوله عز وجل في سورة ق: [فذكر بالقرآن من يخاف وعيد] يعني عظ بالقرآن كقوله سبحانه في سورة الغاشية [فذكر إنما أنت مذكر] يعني عظ إنما أنت واعظ ونحوه.

السابع : الذكر بمعنى الشرف قوله تعالى في سورة الزخرف[وإنه لذكر لك ولقومك]، وكقوله تبارك وتعالى في سورة المؤمنين[بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون] " يعني

بل أتيناهم بشرفهم، كقوله تعالى في سورة الأنبياء [لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم] يعني شرفكم.

الثامن: الذكر بمعنى الخبر قوله تعالى في سورة الأنبياء: [هذا ذكر من معي وذكر من قبلي] يعني هذا خبر من معي وخبر من قبلي. كقوله سبحانه في سورة الصافات: [لو أن عندنا ذكراً من الأولين] يريد خبراً كقوله تعالى في سورة الكهف: [قل سأتلو عليكم منه ذكراً] " " أي خبراً.

التاسع : الذكر بمعنى الوحي قوله تعالى في سورة القمر: [أألقي عليه الذكر من بيننا] " يعني الوحي كقوله سبحانه في سورة الصافات: [فالتاليات ذكراً] يعني الوحي وقوله سبحانه في سورة الحجر [يا أيها الذي نزل عليه الذكر] يعني الوحي كقوله جلت قدرته في سورة المرسلات [فالملقيات ذكراً] يعني وحياً.

العاشر: الذكر يعني القرآن قوله تعالى في سورة الحجر [إنا نحن نزلنا الذكر] وقوله تعالى في سورة الأنبياء [وهذا ذكر مبارك أنزلناه] يعني القرآن كقوله تعالى في سورة الزخرف : [أفنضرب عنكم الذكر صفحاً] يعني القرآن.

الحادي عشر: الذكر يعني التوراة قوله تعالى في سورة الأنبياء: [فاسألوا أهل الذكر] يعني أهل التوراة: عبد الله بن سلام وأصحابه .

الثاني عشر: الذكر اللوح المحفوظ قوله تعالى في سورة الأنبياء [ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر] يعني اللوح المحفوظ.

الثالث عشر: الذكر يعني البيان قوله عز وجل في سورة (ص) [والقرآن ذي الذكر] يعني ذا البيان كقوله تعالى .

في سورة الأنبياء [هذا ذكر من معي وذكر من قبلي] يعني بيانه .

الرابع عشر: الذكر التفكر قوله تعالى في سورة ص [إن هو إلا ذكر للعالمين] يعني تفكراً مثلها في سورة يس.

الخامس عشر: الذكر يعني الصلوات الخمس قوله عز وجل في سورة البقرة [فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون] يعني الصلوات الخمس كقوله جل اسمه في سورة النور [رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله] يعني عن الصلوات الخمس.

السادس عشر: الذكر يعني الصلاة الواحدة قوله تعالى في سورة الجمعة [فاسعوا إلى ذكر الله] يعني صلاة الجمعة كقوله سبحانه في سورة ص [إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي] يعني عن صلاة العصر وحدها.

السابع عشر: الذكر التوحيد قوله جل اسمه في سورة طه [ومن أعرض عن ذكري] يعني توحيدي نظيره في سورة الزخرف [ومن يعش عن ذكر الرحمن].

الثامن عشر: الذكر الرسول قوله تعالى في سورة الطلاق [قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات] كقوله تعالى سبحانه في سورة الأنبياء[ما يأتيهم من ذكر من ربهم] يعني من رسول [69].

المبحث الثاني – التفسير الموضوعي الكشفي

المطلب الأول – منهج البحث في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية:

ذكر الدكتور مصطفى مسلم أن لتفسير السورة الواحدة تفسيرًا موضوعيًا لا بد من اتباع الخطوات المنهجية الآتية:

أولًا: التقديم للسورة بتمهيد يعرف فيه بأمور تتعلق بالسورة من ذكر سبب النزول أوالمرحلة التي نزلت فيها السورة: مكية متقدمة أو متوسطة أو متأخرة، مدنية متقدمة أومتأخرة. وما ورد فيها من أحاديث صحيحة تحدد أسماءها، أو بعض خصائصها أوفضائلها.

ثانيًا: محاولة التعرف على الهدف الأساسي في السورة والمحور الذي تدور حوله ويكون ذلك من خلال دلالة الاسم، أو الموضوعات المطروحة في السورة أو أخذًا من المرحلة التي نزلت فيها.

ثالثًا: تقسيم السورة –وبخاصة الطويلة– إلى مقاطع أو فقرات تتحدث آياتها عن عنصر من عناصر الهدف أو مجال من مجالات المحور، واستنباط الهدايات القرآنية منها وذكر المناسبات بينها.

---

(69) قاموس القرآن للدامغاني (ص: 180 – 183)

رابعًا: ربط هذه المقاطع وما يستنبط من هدايات من كل منها بالهدف الأساسي للسورة بقصد إظهار هذا الهدف وكأنها جداول صغيرة تمد المجرى الأساسي للنهر، أوالشطآن الملتفة حول جذع الدوحة، تقوي أصلها وتدعم ساقها وتآزر متنها لتستوي على سوقها وتعجب الناظرين فيها [70].

أما الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي يشترك مع مصطفى مسلم في الخطوات التي ذكرها وأضاف عليه خطوات منهجية أخرى:

1. ذكر اسم السورة التوقيفي، مع بيان حكمة تسميتها، وملاحظة الصلة بين اسمها والموضوع العام للسورة.
2. معرفة الاسم الاجتهادي سواء أطلقه علماء سابقون أو تمكن من إدراكه، مع ربط الاسم الاجتهادي بموضوع السورة العام.
3. تحديد مكان وزمان نزول السورة.
4. بيان جو نزل السورة، يعتي تحدي الرمحلة بالضبط، هل نزلت في مرحلة متقدمة أومتأخرة من مرحلة الدعوة الإسلامية.
5. تحديد أهداف السورة الأساسية ومقاصدها من خلال القراءة المتدبرة للآيات، والاستدلال على كل هدف بمجموعة من آيات السروة.
6. التعرق على موضوع السورة، ومحاورها، مع ربط تلك المحاور بموضوع السورة.
7. ربط السزورة بما قبلها من سور.
8. تقسيم للسور الطويلة والمتوسطة إلى أقسام، وتوزيع آيات السورة على تلك الأقسام.
9. تقسيم الوحدة إلى دروس موضوعية، وبيان الصلة بين آيات لك درس، ثم الصلة بين دروس الوحدة.
10. استخلاص أهم حقائف السورة والدلالات الت تقرها والإشراة إلى أبعاد السورة وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصر.

---

[70] مباحث في التفسير الموضوعي (ص: 40)

11. الاطلاع على تفسير السروة في أمهات كتب التفسير [71].

المطلب الثاني – دراسة نموذجية لتفسير سورة المنافقون عند بعض المفسرين:

الفرع الأول: دراسة نموذجية لتفسير سورة المنافقون عند الإمام البقاعي[72]:

سنتناول في هذه الدراسة التطبيقية سورة المنافقون عند الإمام البقاعي، لنرى مدى استعماله للمراحل التي سبق ذكرها في التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، على أن يكون تحليل طريقته ومناقشتها شفاهيا مع الطلاب في حصة الدرس.

1- موضوع السورة:

قال الإمام البقاعي: "مقصودها كمال التحذير مما يثلم الإيمان من الأعمال الباطنة، والترهيب مما يقدح في الإسلام من الأحوال الظاهرة ، بمخالفة الفعل للقول فإنه نفاق في

---

(71) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، (ص: 196)

(72) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 605 – 614).

الجملة فيوشك يجر إلى كمال النفاق فيخرج من الدين ويدخل الهاوية ، ليكون هذا التحذير سببا في صدق الأقوال ثم صدق الأعمال ثم صدق الأخلاق ثم صدق الأحوال ثم قف الأنفاس، فصدق القول أن لا يقول القائل إلا عن برهان، وصدق العمل أن لا يكطون للبدعة عليه سلطان، وصدق الأخلاق أن لا يلاحظ ما يبدو منه من الإحسان بعد المبالغة فيه بعين النقصان، وصدق الأحوال أن يكون على كشف وبيان وصدق الأنفاس أن لا يتنفس إلا عن وجود كالعيان، وتسميتها بالمنافقين واضحة في ذلك".

2- مناسبة السورة لما قبلها من السور:

قال الإمام البقاعي: "لما نهى سبحانه في الممتحنة عن اتخاذ عدوه ولياً، وذم في الصف على المخالفة بين القول والفعل، وحذر آخر الجمعة من الإعراض عن حال من أحوال النبي (صلى الله عليه وسلم) على حال من الأحوال ولما مع الوفاق، لأن صورة ذلك كله صورة النفاق، قبح في أول هذه حال من أقبل عليه على حال النفاق؛ لأنه يكون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، واستمرت السورة كلها في ذمهم بأقبح الذم ليكون زاجراً عن كل ما ظاهره نفاق"، فقال تعالى: (إذا جاءك) أي يا أيها الرسول المبشر به في التوراة والإنجيل. (المنافقون) أي العريقون في وصف النفاق وهو إسلام الظاهر وكفر الباطن، وأغلبهم من اليهود (قالوا) مؤكدين لأجل استشعارهم لتكذيب من يسمعهم لما عندهم من الارتياب: (نشهد) قال الحسن: هو بمنزلة يمين كأنهم قالوا: نقسم (إنك) – التأكيد لذلك وإيهاماً لأن قوة تأكيدهم لشدّة رغبتهم في مضمون ما يقولونه (لرسول الله) أي الملك الذي له الإحاطة الكاملة ، فوافقوا الحق بظاهر أحوالهم، وخالفوا بقلوبهم وأفعالهم.

ولما كانت الشهادة الإخبار عن علم اليقين لأنها من الشهود وهو كما الحضور وتمام الاطلاع ومواطأة القلوب للألسنة، صدق سبحانه المشهود به وكذبهم في الإقسام بالشهادة ومواطأة ألسنتهم لقلوبهم فقال: (والله) أي المحيط بجميع صفات الكمال (يشهد) شهادة هي الشهادة لأنها محيطة بدقائق الظاهر والباطن (أن المنافقين) أي الراسخين في وصف النفاق (لكاذبون) أي في إخبارهم عن أنفسهم أنهم يشهدون لأن قلوبهم لا تطابق ألسنتهم فهم لا يعتقدون ذلك، ومن شرط قول الحق أن يتصل ظاهره باطنه وسره بعلانيته، ومتى تخالف ذلك فهو كذب، لا المراد أنهم كاذبون في صحة ما تضمنته شهادتهم من أنك رسول الله والحاصل

أن الشهادة تتضمن شيئين: صدق مضمون الخبر والإذعان له، فصدقهم في الأول وكذبهم في الثاني فصاروا بنفاقهم أسفل حالاً وشر مآلاً من اليهود.

3- المناسبة بين سورة المنافقون وسورة الجمعة:

نقل البقاعي عن الإمام أبو جعفر بن الزبير قوله: "لما أعقب حال المؤمنين فيما خصهم الله به مما انطوت عليه الآيات الثلاث إلى صدر سورة الجمعة إلى قوله:(والله ذو الفضل العظيم) [الجمعة : 4] بذكر حال من لم ينتفع بما حمل حسبما تقدم، وكان في ذلك من المواعظ والتنبيه ما ينتفع به من سبقت له السعادة، أتبع بما هو أوقع في الغرض وأبلغ في المقصود، وهو ذكر طائفة بين أظهر من قدم لاثناء عليهم ومن أقرانهم وأترابهم وأقاربهم، تلبست في الظاهر بالإيمان، وأظهرت الانقياد والإذعان، وتعرضت فأعرضت وتنصلت فيما وصلت، بل عاقتها الأقدار، فعميت البصائر والأبصار، ومن المطرد المعلوم أن اتعاظ الإنسان بأقرب الناس إليه وبأهل زمانه أغلب من اتعاظه بمن بعد عنه زماناً ونسباً، فأتبعت سورة الجمعة بسورة المنافقين وعظاً للمؤمنين بحال أهل النفاق، وبسط من قصصهم ما يلائم ما ذكرناه، وكان قيل لهم: ليس من أظهر الانقياد والاستجابة، ثم بني إسرائيل ثم كان فيما حمل كمثل الحمار يحمل اسفاراً بأعجاب من حال إخوانكم زماناً وقرابة، وأنتم أعرف الناس بهم وأنهم قد كانوا في الجاهلية موصوفين بجودية الرأي وحسن النظر (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) [المنافقين : 4] (ولكن المنافقين لا يفقهون) [المنافقين: 7] قلت: وقد مر في الخطبة ما رويناه في مصنف ابن أبي شيبة من قول أناس من المؤمنين: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين فيبشر بها المؤمنين ويحرضهم، وأما سورة المنافقين فيوئس بها المنافقين ويوبخهم، وهذا نحو ما ذكرناه أولاً – انتهى[73].

4- جودة الربط بين الآيات:

نلاحظ ذلك في تسلسل بيا مدلول الآيات ومقاصدها، فيقول: "ولما كان المعنى أنهم لم يعتقدوا ما شهدوا به، وكان كأنه قيل: فما الحامل لهم على هذا الكلام المؤكد والكذب في غاية القباحة لا سيما عند العرب، علله بقوله مسمياً شهادتهم إيماناً لأن الشهادة تجري مجرى القسم في إرادة التوكيد، ولذلك يتلقى بما يتلقى به القسم: (اتخذوا) أي أخذو بجهدهم

---

[73] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 606).

(أيمانهم) أي كلها من شهادتهم هذه المجتهد في توكيدها وكل يمين سواها (الجنة) أي وقاية تقيهم المكاره الدنيوية ويستترون بها منها فيصونون بها دماءهم وأموالهم ، فاستضاؤوا بنور الإجابة فلم ينبسط عليهم شعاع نور السعادة فانطفأ نوهرم بقهر الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الخذلان (فصدوا) أي فسبب لهم اتخاذهم هذا أن أعرضوا بأنفسهم مع سوء البواطن وحرارة الصدور، وحملوا غيرهم على الإعراض لما يرى من سيئ أحوالهم بتلك الظواهر مع بقائهم على ما كانوا ألفوه من الكفر الذي يزينه الشيطان (عن سبيل الله) أي عن طري فالملك الأعظم الذي شرعه لعباده ليصلوا به إلى محل رضوانه، ووصلوا إلى ذلك بخداعهم ومكرهم بجرأتهم على الإيمان الحانثة التي يمشون حالهم بها لما شرعه الله في هذه الحنيفية السمحة من القناعة من الحالف بيمينه فيما لا يعلم إلا من قبله .

"ولما كان ما أخبر به من حالهم في غاية القباحة ، أنتج قوله : (إنهم) وأكده لأن حالهم بعجبهم وعجب كثيراً ممن قاربهم (ساء ما كانوا) أي جبلة وطبعاً (يعملون) أي يجددون عمله مستمرين عليه بما هو كالجبلة من جرأتهم على الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) وخلص عباده بالأيمان الحانثة[74].

ولما كانت المعاصي تعمي القلب فكيف بأعظمها ، علله بقوله : (ذلك) أي الأمر العظيم في البعد من الخير من الكذب بالإخبار بالشهادة والحلف على الصدق والصد عن السبيل والوصف لعملهم بالسوء (بأنهم آمنوا) أي بسبب أنهم أقروا بالإيمان بألسنتهم منغير مطابقة لقلوبهم .

ولما كان الكفر مستبعداً فكيف إذا كان بعد الإقرار، عبر بأداة البعد لذلك ولتفهم الذم على التعقيب من باب الأولى، ولئلا بتوهم أن الذم إنما هو على تعقيب الإيمان بالكفر فقط، لا على مطلقه ، فالعبير بثم يفهم أن من استمر طول عمره على الإيمان ثم كفر قبل موته بلحظة كان له هذا الذم فقال: (ثم كفروا) أي سراً فهابوا الناس ولم يهابوا الله .

"ولما كان مجرد الطبع على القلب في غاية البشاعة، كان مفهماً لبشاعة ما كان منه من الله من باب الأولى، بني للمجهول قوله: (فطبع) أي فحصل الطبع وهو الختم مع أنه معلوم أنه لا يقدر على ذلك غيره سبحانه) على قلوبهم (لأجل اجترائهم على ما هو أكبر الكبائر على

---

[74] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 607).

وجه النفاق حتى مرنوا على الكفر واستحكموا فيه ، وكذلك من ترك الجمعة ثلاثة مرات تهاوناً بها (فهم) أي فتسبب عن ذلك أنهم (لا يفقهون) أي لا يقع لهم فقه في شيء من الأشياء فهم لا يميزون صواباً من خطأ ولا حقاً من باطل لأن المختوم عليه لا يصل إليه شيء ولا يخرج منه شيء .

"ولما وصف سبحانه بواطنهم بما زهد فيهم لأن الإنسان بعقله كما أن المأكول بشكله، وكانت لهم أشكال تغز ناظرها لأن العرب كانت تقول : جمال المنظر يدل غالباً على حسن المخبر ، قال تعالى: (وإذا رأيتهم) أي أيها الرسول على ما لك من الفطنة ونفوذ الفراسة أو أيها الرائي كائناً من كان بعين البصير (تعجبك أجسامهم) لضخامتها وصباحتها، فإن غايتهم كلهم بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفسهم، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن أبي – يعني – الذي نزلت السورة بسببه – جسيماً فصيحاً صحيحاً ذلق اللسان، وقوم من المنافقين في مثل صفته وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويستندون فيه ولهم جهارة المناظرة وفصاحة الألسن، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن حضر يعجبون بهياكلهم[75].

"ولما وصف البواطن والظواهر، وكان قوله: المرء بأصغيره قلبه ولسانه مشروطاً كما هو ظاهر العبارة بمطابقة اللسان للقلب، قال معبراً بأداة الشك إشارة إلى أنهم لا يكلمونه (صلى الله عليه وسلم) إلا اضطراراً؛ لأنهم لا يحبون مكالمته ولا باعث لهم عليها لما عندهم من أمراض القلوب: (وإن يقولوا) أي يوجد منهم قول في وقت من الأوقات) تسمع لقولهم) أي لأنه يكون بحيث يلذذ السمع ويروق الفكر لما فيه من الادهان مع الفصاحة فهو يأخذ بمجامع القلب .

"ولما اخبر عن ظاهرهم، دل على أن ذلك الظاهر أمر لا حقيقة له، أنهم لما وطنوا أنفسهم على الوقاحة وخلعوا لباس الحياء بالكذب بذلوا جميع الجهد في تحسين القول لأنه لا درك عليهم فيه فيما يحسبون بوجه لأنهم لا يحسبون للآخرة حساباً فقال: (كأنهم) أي في حسن ظواهرهم وسوء بواطنهم وفي الجبن والخور وعدم الانتفاع بهم في شيء من فهم أو ثبات فإنهم لا حقيقة لهم (خشب) جمع كثرة لخشبة وهو دليل على كثرتهم .

---

(75) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 608).

"ولما كان الخشب ربما أطلق على المغروس، نفى ذلك بقوله منبهاً بالتشديد على الكثرة: (مسندة) أي قد قطعت من مغارسها وقشرت وأسندت إلى الجدر لئلا يفسدها التراب، فهي بيض تلوح تعجب ناظرها ولا ثبات لها ولا باطن بثمرة ولا سقي فلا مدد سماوي لها أصلاً يزكيها نوع زكاء فقد فقدت روح الإثبات الذي به كمالها كما فقد المنافق روح الذي به كمال الناطق وبقاؤه، فهم في تلك الحالة أشباح بلا أرواح أجسام بلا أحلام.

"ولما كان من يقول ما لا يفعل يصير متهماً لكل من يكلمه ، لأنه لإخلافه له قد صار عدوه فيتوهم الناس كلهم أعداء له فيكسبه ذلك أشد الجبن ، وذلك هو السبب الأعظم في تحسين قوله، قال: (يحسبون) أي لضعف عقولهم وكثرة ارتيابهم لكثرة ما يباشرون من سوء أعمالهم (كل صيحة) أي من نداء مناد في انفلات دابة أو إنشاد ضالة ، ونحو ذلك (عليهم) أي واقعة .

"ولما كان من يظن عداوة الناس له يكون هو عدواً لهم ، قال نتيجة ما مضى: (هم) أي خاصة (العدو) أي كامل العداوة بما دل عليه الإخبار بالمفرد الذي يقع على الجمع دون الجمع إشارة إلى أنهم – في شدة عداوتهم للاسلام وأهله وكمال قصدهم وشدة سعيهم فيه – على قلب واحد وإن أظهروا التودد في الكلام والتقرب به إلى أهل الإسلام، فإن ألسنتهم معكم إذا لقوكم ، وقلوبهم عليكم مع أعدائكم ، فهو عيون لهم عليكم .

"ولما بين ذلك من سوء أحوالهم سبب عنه قوله: (فاحذرهم) لأن أعدى الأعداء العدو المداحي الذي يكاشرك وتحت ظلوعه الداء الدوي، فإن من استشعر أنك عدو له بغى لك الغوائل، وأغلب من يعجبك قوله على هذا الوصف يكون، ولكنه يكون بلطف الله دائم الخذلان منكوساً في أكثر تقلباته بيد القهر والحرمان لسر قوله تعالى: (قاتلهم الله) أي أحلهم الملك المحيط علماً وقدرة محل من يقاتله عدو قاهر له أشد مقاتلة على عادة الفعل الذي يكون بين اثنين[76].

"ولما كان حالهم في غاية العجب في صرفهم عن الإسلام أولاً بالعمى عن الآيات الظاهرات، وثانياً عن الإخبار بأسرارهم ، وخفي مكرهم وأخبارهم، وفي عدم صرفهم عما هم عليه من قبح السرائر وسوء الضمائر بتعكيس مقاصدهم، وتخييب مصادرهم في مكارهم

---

[76] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 609).

ومواردهم، دل على ذلك بقوله: (أنّى) أي كفي ومن أيّ وجه (يؤفكون) أي يصرفهم عن إدراك قبح ما هم عليه صارف ما كائناً ما كان ليرجعوا عنه إلى حسن الدين والأنس به وإدراك بركته وعظيم أثره .

"ولما كان هذا أمراً عظيماً قطعاً عن الله ورسوله فيحتاد فاعله حاجة شديدة إلى التطهير وهو جدير بعظمه أن لا يطهره غاية الطهر إلا سؤال النبي (صلى الله عليه وسلم) وكانوا لم يفعلوا ذلك، دل على سوء بواطنهم وغلظ أكبادهم وأنهم كالخشب المسندة في أنهم لا ثمرة لهم ولا زكاء أصلاً بقوله: (وإذا قيل لهم) أي من أيّ قائل كان: (تعالوا) أي ارفعوا أنفسكم مجتهدين في ذلك بالمجيء إلى أشرف الخلق الذي لا يزال مكانه عالياً لعلو مكانته (يستغفر لكم) أي يطلب الغفران لأجلكم خاصة بعد أن تتولوا من ذنبكم من أجل هذا الكذب الذي أنتم مصرون عليه .

"ولما تقدم عاملان، أعمل الثاني منهما كما هو المختار من مذهب البصريين فرفع قوله: (رسول الله) أي أقرب الخلق إلى الملك الأعظم الذي لا شبيه لجوده (لووا رؤوسهم) أي فعلوا اللي بغاية الشدة والكثرة ، وهو الصرف إلى جهة أخرى إعراضاً وعتواً وإظهاراً للبغض والنفرة ، وبالغوا فيه مبالغة تدل على أنهم مغلوبون عليه لشدة ما في بواطنهم من المرض) ورأيتهم) أي بعين البصيرة (يصدون) أي يعرضون إعراضاً قبيحاً عما دعوا إليه مجددين لذلك كلما دعوا إليه ، والجملة في موضع المفعول الثاني لرأيت (وهم مستكبرون) أي ثابتوا الكبر عما دعوا إليه وعن إحلال أنفسهم في محل الاعتذار ، فهم لشدة غلظتهم لا يدركون قبح ما هم عليه ولا يهتدون إلى دوائه ، وإذا أرشدهم غيرهم ونبههم لا ينبهون ، فقد روي أنه لما نزل القرآن فيهم أتاهم شائرهم من المؤمنين وقالوا : ويحكم افتضحتم واهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتولوا إليه واسألوه أن يستغفر لكم ، فأبوا ذلك فأنزل الله هذه الآية ، وروي أن ابن أبي رأسهم لوى رأسه وقال لهم : أشرتم علي بالإيمان فآمنت وأشرتم عليّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلت ، ولم يبق إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد .

"ولما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحب صلاحهم فهو يحب أن يستغفر لهم ، وربما ندبه إلى ذلك بعض أقاربهم ، فكان استغفاره بحيث يسأل عنه ، قال منبهاً على أنهم ليسوا بأهل للاستغفار لأنهم لا يؤمنون[77].

"ولما كان قد سلخ في هذا السياق عن الهمزة معنى الاستفهام كان معنى (استغفرت لهم) أي في هذا الوقت (أم لم تستغفر لهم) أي فيه أو فيما بعده – مستو عندهم استغفارك لهم وتركه ، لأنه لا أثر له عندهم ، ولهذا كانت نتيجته – عقوبة لهم – النفي المبالغ فيه بقوله : (لن يغفر الله) أي الملك الأعظم) لهم (ولعل التعبير بالاستفهام بعد سلخ معناه للاشارة إلى أنهم لو شاهدوا الملك يستفهمك عن ذلك ما ردهم عن نفاقهم وما زادهم ذلك على ما عندهم شيئاً ، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) قيد هذه الآية بآية براءة المحتملة للتخيير وأنه إن زاد على السبعين كان الغفران مرجواً ، فاستجاز بذلك الصلاة على ابن أبي رأس المنافقين والاستغفار له لما عنده (صلى الله عليه وسلم) من عظيم الشفقة على عباد الله ومزيد الرحمة لهم ولا سيما من كان في عداد أصحابه والأنصار رضي الله عنهم به عناية .

"ولما كان التقدير لتعليل المبالغة في الإخبار بعد الغفران لهم : لأن فسقهم قد استحكم فصار وصفاً لهم ثابتاً ، عبر عن ذلك بقوله : (إن الله) أي الذي له صفات الكمال (لا يهدي القوم) أي الناس الذي لهم قوة في أنفسهم على ما يريدونه (الفاسقين) لأنهم لا عذر لهم في الإصرار على الفسق وهو المروق من حصن الإسلام بخرقه وهتكه مرة بعد مرة والتمرن عليه حتى استحكم فهم راسخون في النفاق والخروج عن مظنة الإصلاح .

"ولما كان هذا داعياً إلى السؤال عن الأمر الذي فسقوا به ، قال مبيناً له : (هم) أي خاصة بواطنهم (الذين يقولون) أي أوجدوا هذا القول ولا يزالون يجددون لأنهم كانوا مربوطين بالأسباب محجوبين عن شهود التقدير غير محققين بتصريف الأحكام ، فأنطقهم ما خامر قلوبهم من تمني إطفاء نور الله فتواصوا فيما بينهم بقولهم: (لا تنفقوا) أيها المخلصون في النصرة (على من) أي الذين عند رسول الله أي الملك المحيط بكل شيء، وهم فقراء المهاجرين ، وكأنهم عبروا بذلك وهم لا يعتقدونه تهكماً وإشارة إلى أنه لو كان رسوله، وهو الغنى المطلق لأغنى أصحابه ولم يحوجهم إلى أن ينفق الناس عليهم، وما درى الأغبياء أن ذلك

---

[77] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 610).

امتحان منه سبحانه لعباده – فسبحان من يضل من يشاء – حتى يكون كلامه أبعد شيء عن الصواب بحيث يعجب العاقل كيف يصدر ذلك من إحد، أو أن هذه ليست عبارتهم وهو الظاهر، وعبر سبحانه عنهم بذلك إشارة إلى أن كلامهم يؤول إلى إرادة ضر من الله معه توقيفاً على كفرهم وتنبيهاً على أن من أرسل رسولاً لا يكله إلى أحد بل يكفيه جميع ما يهمه من غير افتقار إلى شيء أصلاً ، فقد أرسل سبحانه إليه (صلى الله عليه وسلم) بمفاتيح خزائن الأرض فأباها وما كفاهم هذا الجنون حتى زادوه ما ظنوا أن أبواب الرزق تغلق إذا امتنع المنفقون من الناس عن إنفاقهم، وعبروا بحرف غياية ليكون لما بعده حكم ما قبله فقالوا: (حتى نفضوا) أي يتفرقوا تفرقاً قبيحاً فيه كسر فيذهب أحد منهم إلى إهله وشغله الذي كان له قبل ذلك...[78].

"وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح الله غيرهم للانفاق، أو أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) فدعا في الشيء اليسير فصار كثيراً، أو كان بحيث لا ينفد، أو أعطى كلاًّ يسيراً من طعام على كيفية لا تنفد معها كتمر أبي هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن رضي الله عنهم وغير ذلك كما روي ذلك غير مرة ، ولكن ليس لمن يضل الله من هاد ، ولذلك عبر في الرد عليهم بقوله: (ولله) أي قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله والحال أن للملك الذي لا أمر لأحد معه فهو الآمر الناهي (خزائن السماوات) أي كلها (والأرض) كذلك من الأشياء التي أوجدها فهو يعطي من يشاء منها ما يشاء حتى من أيديهم، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك لا مما في يده ولا مما في يد غيره، ونبه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم كما قال بعضهم: إن كان محمد صادقاً فنحن شر من البهائم، أشار إلى ذلك بقوله: (ولكن المنافقين) أي العريقين في وصف النفاق.

"ولما كان ما يساق إلى الخلق من الأرزاق فيظن كثير منهم أنهم حصلوه بقوتهم، عبر بالفقه الأخص من العلم فقال: (لا يفقهون) أي لا يتجدد لهم فهم أصلاً لأن البهائم إذا رأت شيئاً ينفعها يوماً ما في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله من خوارق البركات على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم ينفعهم ذلك ، فمن رأى أنرزقه بيد الخلق فألهاه ذلك عن الله حتى ضيع حقوقه وداهن في دينه فقد برئ من القرآن، ودل على

---

[78] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 611).

عدم فقههم بقوله تعالى: (يقولون) أي يوجدون هذا القول ويجددونه مؤكدين له لاستشعارهم بأن أكثر قومه ينكره: (لئن رجعنا) أي نحن أيتها العصابة المنافقة من غزاتنا هذه – التي قد رأوا فيها من نصرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يعجز الوصف وهي غزوة بني المصطلق حي من هذيل بالمريسيع وهو اء من مياههم من ناحية قديد إلى الساحل وفيها تكلم ابن أبي بالإفك وأشاعه – (إلى المدينة) ودلوا على تصميمهم على عدم المساكنة بقولهم : (ليخرجن الأعز) يعنون أنفسهم (منها الأذل) وهم كاذبون في هذا، لكنهم تصوروا لشدة غباوتهم أن العزة لهم وأنهم يقدرون على إخراج المؤمنين (ولله) أي والحال أن كل من له نوع بصيرة يعلم أن للملك الأعلى الذي له وحده عز الإلهية (العزة) كلها، فهو قهار لمن دونه وكل ما عداه دونه[79].

"ولما حصر العزة بما دل على ذلك من تقديم المعمول، أخبر أنه يعطي منها من أراد وأحقهم بذلك من أطاعه فترجم ذلك بقوله: (ولرسوله)؛ لأن عزته من عزته بعز النبوة والرسالة وإظهار الله دينه على الدين كله، وكذلك أيضاً أن العزة لمن أطاع الرسول بقوله: (وللمؤمنين) أي الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً لأن عزتهم بعزة الولاية، ونصر الله إياهم عزة لرسولهم (صلى الله عليه وسلم)، ومن تعزز بالله لم يلحقه ذل.

"ولما كان جهلهم في هذا أشد لكثرة ما رأوا من نصرة الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ومن تابعه رضي الله عنهم وإعلائهم على كل من ناواهم، قال منبهاً على ذلك: (ولكن المنافقين) أي الذي ساتحكم فيهم مرض القلوب.

"ولما كانت الدلائل على عزة الله لا تخفى على ولا المنازعة فيه، ومن المنع نم أكثر المرادات ، ومن نصر الرسول وأتباعهم بإهلاك أعدائهم بأنواع الهلاك، وبأنه سبحانه ما قال شيئاً إلا تم ولا قالت الرسل شيئاً إلا صدقهم فيه، ختم الآية بالعلم الأعم من الفقه فقال: (لا يعلمون) أي لا لأحد لهم علم الآن، ولا يتجدد في حين من الأحيان، فلذلك هم يقولون مثل هذا الخراف، وروي أنه لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله ولد عبد الله بن أبي ابن سلول الذي نزلت بسببه إلى أبيه، وذلك في غزوة المريسيع لبني المصطلق فأخذ بزمام ناقة أبيه

---

[79] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 613).

وقال: أنت والله الذليل، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) العزيز، ولما دنوا من المدينة الشريف جر سيفه وأتى أباه فأخذ بزمام ناقته .

"وزجرها إلى ورائها وقال: إياك وراءك والله لا تدخلها حتى يأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولئن لم تقر بأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأعز وأنت الأذل لأضربن عنقك، قال: أفاعل أنت ؟ قال: نعم، قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وشكا ولده إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمره أن يدعه يدخل المدينة ، فأطلق فدخل[80].

"ولما كان هذا الذي حكاه سبحانه وتعالى عن المنافقين بحيث يعجب غاية العجب من تصور قائله له فضلاً عن أن يتفوه به فكيف بأن يعتقده، نبه على أن العلة الموجبة له طمس البصيرة ، وأن العلة ف طمس البصيرة الإقبال بجميع القلب على الدينا رجوعاً على إيضاح ما تقدم في نتيجة الجمعة من الإذن في طلب الرزق والتحذير من مثل فعل حاطب رضي الله عنه وفعل من انصرف عن خطبة لتلك العير، وكان هذا التنبيه على وجه حاسم لمادة شرهم في كلامهم فإن كلمة الشح كما قيل مطاعة ، ولو بأن تؤثر أثراً ما ولو بأن تقتر نوع تقتير في وقت ما ، فقال منادياً لمن يحتاج إلى ذلك: (يا أيها الذين آمنوا) أي أخبروا بما يقتضي أن بواطنهم مذعنة كظواهرهم) لا تلهكم أموالكم (ولما كان الخطاب مع من يحتاج إلى التأكيد قال: (ولا أولادكم) أي لا تقبلوا على شيء من ذلك بجمع قلوبكم إقبالاً يحيركم سواء كان ذلك في إصلاحها أو التمتع بها بحيث تشتغلون وتغفلون) عن ذكر الله) أي من توحدي الملك الأعظم الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء فله الملك وله الحمد يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، فإذا كان العبد ذاكراً له بقلبه دائماً لم يقل كقول المنافقين (لا تنفقوا) [المنافقين : 7] ولا (ليخرجن الأعز منها الأذل) [المنافقين : 8] لعلمه أن الأمر كله لله، وأنه لن يضر الله شيئاً، ولا يضر بذلك إلا نفسه، وهذا يشمل ما قالوه من التوحيد والصلاة والحج والصوم وغير ذلك، ولإرادة المبالغة في النهي وجّه النهي إلى الأموال والأولاد بما المراد منه نهيهم.

"ولما كان التقدير: فمن انتهى فهو من الفائزين، عطف عليه قوله: (ومن يفعل) أي يوقع في زمن من الأزمان على سبيل التجديد والاستمرار فعل (ذلك) أي الأمر البعيد عن أفعال ذوي الهمم من الانقطاع إلى الاشتغال بالفاني والإعراض عن الباقي والإقبال على العاجل مع

---

(80) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 614).

نسيان الآجل (فأولئك) أي البعداء عن الخير (هم) أي خاصة (الخاسرون) أي العريقون في الخسارة حتى كأنهم كانوا مختصين بها دون الناس ، وذلك ضد ما أرادوا بتوفير النظر إليهم والإقبال عليهم من السعي للتكثير والزيادة والتوفير ، وفي إفهامه أن من شغله ما يهمه من أمر دينه الذي أمره سبحانه به ونهاه عنه إضاعته وتوعده عليها كفاه سبحانه أمر دنياه الذي ضمنه له ونهاه أن يجعله أكبر همه وتوعده على ذلك ، فما ذكره إلا من وجده في جميع أموره ديناً ودنيا، وتوجه إليه في جميع نوائبه، وأقبل عليه بكل همومه، وبذل نفسه له بذل من يعلم أنه مملوك مربوب فقد أمر ربه على نفسه واتخذه وكيلاً فاستراح من المخاوف، ولم يمل إلى شيء من المطامع فصار حراً[81].

"ولما حذر من الإقبال على الدنيا، رغب في بذلها مخالفة للمنافقين فقال: (وأنفقوا) أي ما أمرتم به من واجب أو مندوب، وزاد في الترغيب بالرضى منهم اليسير مما هو كله له بقوله: (من ما رزقناكم) أي من عظمتنا وبلغ النهاية في ذلك بالرضا بفعل ما أمر به مع التوبة النصوح في زمن ما ولو قل بما أرشد إليه إثبات الجار، فقال مرغباً في التأهب للرحيل والمبادرة لمباغتة الأجل، محذراً من الاغترار بالتسويف في أوقات السلامة : (من قبل (وفك المصدر ليفيد (أن) مزيد القرب فقال: (أن يأتي) ولما كان تقديم المفعول كما تقدم في النسا أهوال قال: (أحدكم الموت) أي برؤية دلائله وأماراته، وكل لحظة مرت فهي من دلائله وأماراته.

"ولما كانت الشدائد تقتضي الإقبال على الله ، سبب عن ذلك بقوله : (فيقول (سائلاً في الرجعة ، وأشار إلى ترقيقها للقلوب بقوله: (رب لولا) أي هل لا ولم لا (أخرتني) أي أخرت موتي إمهالاً لي (إلى أجل) أي زمان، وبين أن مراده استدراك ما فات ليس إلا بقوله : (قريب فأصدق) أي للتزود في سفري هذا الطويل الذي أنا مستقبله ، قال الغزالي في كتاب التوبة من الإحياء : قال بعض العارفين : إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة ، وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدوا للعبد من الأسف والحسرة مما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه ، يقول : يا ملك الموت أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزود فيها صالحاً لنفسي ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر

---

[81] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 614).

بروحه وتردد أنفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة البأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال ، فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة ، وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله تعالى خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين : أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو ، الثاني أن يعاجلة المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، فيأتي الله تعالى بقلب غير سليم ، والقلب أمانة الله عند عبده ، قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقاني ، والثاني عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعذاب [82].

"ولعله أدغم تاء التفعل إشارة إلى أنه إذا أخر فعل ذلك على وجه الإخفاء ليكون أفضل، أو يكون إدعامها اختصاراً لبلوغ الأمر إلى حد محوج إلى الإيجاز في القول كما طلب في الزمن ، ويؤيده قراءة الجماعة غير أبي عمرو) وأكن (بالجزم عطفاً على الجواب الذي هدى السياق إلى تقديره ، فإن حال هذا الذي أشرف هذا الإشراف يقتضي أن يكون أراد إن (أخرتني أتصدق) ولكنه حذفه لضيق المقام عنه واقتضاء الحال لحذفه ، وهو معنى ما حكاه سيبويه عن الخليل أن الجزم على توهم الشرط الذي دل عليه التمني على الموضع ، فإن الجازم غير موجود ، ومعنى ما قال غيره أن (لولا) لكونها تحضيضية متضمنة معنى الأمر ومعنى الشرط ، فكأنه قيل : أخرني ، فيكون جوابه العاري عن الفاء مجزوماً لفظاً والمقرون بها مجزوماً محلاً ف (أكن) عطف على المحل، ونصب أبو عمرو عطفاً على اللفظ لأنه جواب التمني الذي دلت عليه (لولا) وإجماع المصاحف على الحذف الواو لا يضره لأنه قال : إنها للاختصار، وهو ظاهر ، وذلك للمناسبة بين اللفظ والخط والزمان والمراد ، ومن هنا تعرف جلالة القراء ومرادهم إن شاء الله تعالى بقولهم في الضابط المشهور وإن توافق رسم المصحف

---

[82] نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – العلمية (7/ 615 – 616).

ولو احتمالاً) من الصالحين) أي العريقين في هذا الوصف العظيم ، وزاد في الحث على المبادرة بالطاعات قبل الفوات بقوله مؤكداً لأجل عظيم الرجاء من هذا المحتضر للتأخير عطفاً على ما تقديره : فلا يؤخره الله فيفوته ما أراد: (ولن) ويجوز أن تكون الجملة حالاً أي قال ذلك والحال أنه لن) يؤخر الله) أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له فلا اعتراض عليه (نفساً) أي أيّ نفس كانت ، وحقق الأجل بقوله : (إذا جاء أجلها) أي وقت مكوثها الذي حده الله لها فلا يؤخر الله نفس هذا القائل لأنها من جملة النفوس التي شملها النفي .

"ولما كان المعنى على طريق النتائج التي لا شك في إراشاد اللفظ إليها: الله عالم فإنه يقول ذلك، عطف عليه قوله حاثاً على المسارعة إلى الخروج عن عهدة الطاعات والاستعداد لما لا بد منه من اللقاء محذراً من الإخلال ولأنه لا تهديد كالعلم: (والله) أي الذي له الإحاطة الشاملة علماً وقدرة (خبير) أي بالغ الخبرة والعلم ظاهراً وباطناً (بما تعلمون) أي توقعون عمله في الماضي والحال والمآل كله ظاهره وباطنه من هذا الذي أخبرتكم أن المحتضر العاصي يقوله ومن غيره منه ومن غيره أيها الناس – هذا على قراءة الجمهور بالخطاب ، وعلى قراءة أبي بكر عن عاصم بالغيب يمكن أن يراد المنافقون، ويمكن أن يعم فيكون الضمير للنفس على المعنى ويمكن أن يكون الضمير للناس على الالتفات للإعراض تخويفاً لهم، ولذلك علم سبحانه كذب المنافقين في أنهم يعتقدون ما شهدوا به في أمر الرسالة وعلم جميع ما قص من أخبارهم(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [الملك : 14] والله أعلم .

الفرع الثاني: دراسة نموذجية لتفسير سورة المنافقون عند سيد قطب[83]:

تناول سيد قطب هذه السورة مركزا فيها على القضايا الآيتة:

1 – اسم السورة: في قوله: "هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص «المنافقون» الدال على موضوعها..

2 – موضوع السورة: وذلك في قوله: "ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين، ووصف أحوالهم ومكائدهم. فلا تكاد تخلو سورة مدينة من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحا.

- ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم.
- وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب.
- وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين، ولو من بعيد. وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله، والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات.

2 – **تاريخ حركة النفاق:** حيث قدم للسورة بنبذة عن النفاق والمنافقين وأثرهم في التاريخ، فقال: "وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله– صلى الله عليه وسلم– ولم تنقطع في أي وقت تقريبا، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين.. هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على

---

(83) في ظلال القرآن (6/ 3571 - 3581)

ضخامة هذه الحركة، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين".**واستعان في هذا مما كتبه** محمد عزة دروزة في كتاب: «سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم»

3 – تناوله أسباب النزول والاستعانة بها في توجيه المعاني واستخراج الحكم:

فقد ذكر أن سياق السورة نزل في عبد الله بن أبي بن سلول، وأطال النفس في ذلك فقال: "وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول:

وفصّل ابن إسحاق هذا في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست على المريسيع.. ماء لهم.. فبينا رسول الله– صلى الله عليه وسلم– على ذلك الماء– بعد الغزوة– وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عون ابن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه. يا معشر المهاجرين.

فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث. فقال: أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا. والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيد بن أرقم. فمشى به إلى رسول الله– صلى الله عليه وسلم– وذلك عند فراغ رسول الله– صلى الله عليه وسلم– من عدوه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب. فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أذن بالرحيل» . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله– صلى الله عليه وسلم– يرتحل فيها. فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله– صلى الله عليه وسلم– حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه– فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به. وكان في قومه شريفا عظيما. فقال من حضر رسول الله– صلى الله عليه وسلم– من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حدبا على ابن أبي بن سلول ودفعا عنه.

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسار لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها. فقال له رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال «عبد الله بن أبي» قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل؟» قال: فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت. هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله ارفق به. فو الله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا! ثم مشى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس. ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله- صلى- الله عليه وسلم- ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبي.

قال ابن إسحاق: ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين، في ابن أبي ومن كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: «هذا الذي أوفى لله بأذنه» ..

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه.

قال ابن إسحاق. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه. فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته»

.. قال: قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أعظم بركة من أمري..

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة، واستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه: وراءك! فقال: مالك؟ ويلك! فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فإنه العزيز وأنت الذليل! فلما جاء رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وكان إنما يسير ساقة، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه. فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم- فقال: أما إذ أذن لك رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فجز الآن.." [84].

4 – تحليل واستخلاص الدروس والعبر من روايات أسباب النزول:

كما ورد ذلك بعد ذكره لروايات أسباب النزول في هذه السورة بقوله: "وننظر مرة إلى الأحداث، ومرة إلى الرجال، ومرة إلى النص القرآني، فتجدنا مع السيرة، ومع المنهج التربوي الإلهي، ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور..

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ويعيشون فيه- في حياة الرسول- صلى الله عليه وسلم- قرابة عشر سنوات. والرسول- صلى الله عليه وسلم- لا يخرجهم من الصف، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته. وإن كان يعرفهم في لحن القول، بالالتواء والمداورة. ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات. ذلك كي لا يكل الله قلوب الناس للناس. فالقلوب له وحده، وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر كي لا يأخذوا الناس بالظنة، وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة! وحتى حينما عرف الله نبيه- صلى الله عليه وسلم- بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه. إنما عرفهم وعرّف بهم واحدا فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- ولم يشع ذلك بين المسلمين. حتى إن عمر- رضي الله عنه- كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن

---

[84] في ظلال القرآن (6/3576 - 3577)

.

الرسول- صلى الله عليه وسلم- لم يسمه له من المنافقين! وكان حذيفة يقول له: يا عمر لست منهم. ولا يزيد! وكان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قد أمر ألا يصلي على أحد منهم مات أبدا. فكان أصحابه يعرفون عند ما يرون الرسول لا يصلي على ميت. فلما قبض- صلى الله عليه وسلم- كان حذيفة لا يصلي على من عرف أنه منهم. وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر.

فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئا! وهكذا كانت تجري الأحداث- كما يرسمها القدر- لحكمتها ولغايتها، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب.

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة..

هذا عبد الله بن أبي بن سلول. يعيش بين المسلمين. قريبا من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول. ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان، لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة. وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير، تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكا على الأوس والخزرج، بسبب مقدم رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالإسلام إلى المدينة! فتكفه هذه وحدها عن الهدى. الذي تواجهه دلائله من كل جانب. وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب! وهذا ابنه عبد الله- رضي الله عنه وأرضاه- نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع. يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه. ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف. ويسمع أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يريد أن يقتل أباه هذا. فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة.

إنه يحب الإسلام، ويحب طاعة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه. ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه. وهو يخشى أن تخونه نفسه، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية، وهتاف الثأر.. وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلجات قلبه، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه. فيطلب منه إن كان لا بد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه. وهو لا بد مطيع. وهو يأتيه برأسه. كي لا يتولى ذلك غيره، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض. فيقتله.

فيقتل مؤمنا بكافر. فيدخل النار..

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر في هذا الموقف الكريم. روعة الإيمان في قلب إنسان، وهو يعرض على رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية- أن يقتل أباه- وهو صادق النية فيما يعرض. يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق.. وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر، فيدخل النار.. وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول:

«فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني» . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج لا بأن يرد أمره أو يغيره- فالأمر مطاع والإشارة نافذة- ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه! والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا» .. ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رأيه: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟» .

ثم تصرف الرسول- صلى الله عليه وسلم- في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم.. وأمره بالسير في غير أوان، ومتابعة السير حتى الإعياء، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين:

يا للأنصار! يا للمهاجرين! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان.. "[85].

5 – التدرج في تحليل آيات السورة والربط بين مقاطعها:

كان لسيد قطب أسلوب خاص في تحليل الآيات والربط بين آياتها ومقاطعها، بشكل يجذب القارئ ويجعل يتفاعل مع معاني الآيات الكريمة، مستوعبا معانيها، رابطا مقدمها

---

[85] في ظلال القرآن (3577/6 - 3578)

.

بمؤخرها، دون فكاك لمعنيها، انظر إليه وهو يبدأ في تفسير السورة الكريمةفيقول: "وهذه السورة تبدأ بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي- صلى الله عليه وسلم- هو رسول الله. وحلفهم كذبا ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم، ويخدعون المسلمين فيهم:

«إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله- والله يعلم إنك لرسوله- والله يشهد إن المنافقين لكاذبون. اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله، إنهم ساء ما كانوا يعملون»

"فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان، لا يقصدون بها وجه الحق، إنما يقولونها للتقية، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين. فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها، ويداروا أنفسهم بقولها. ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ» .. «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ» .

والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه. فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين.

"ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة. وليس هذا هو المقصود. إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقا ولا يشهدون بها خالصي الضمير! «اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً» .. وهي توحي بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم، أو عرف عنهم كيد أو تدبير، أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين. كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم.

«فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» .. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة: «إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» .. وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل!؟ [86]

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة، وأيمان مكذوبة خادعة، وصد عن سبيل الله وسوء عمل.. يعلله بأنهم كفروا بعد الإيمان، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام:

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» ..

---

[86] في ظلال القرآن (3573/6)

"فهم عرفوا الإيمان إذن، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر. وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تذوق، أو حياة. وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف، ويطلع على التصور الإيماني للوجود، وعلى التذوق الإيماني للحياة، ويتنفس في جو الإيمان الذكي، ويحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفيأ ظلال الإيمان الندية.. ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد! «فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ» .. [87]

"ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف الممسوخ المطموس من الناس، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفزع والحقد والكنود. بل تنصبهم تمثالا وهدفا للسخرية في معرض الوجود:

«وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ. وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ. يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ. قاتَلَهُمُ اللَّهُ! أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟» ..

"فهم أجسام تعجب. لا أناسي تتجاوب! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون.. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة.. «تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ» .. ولكنها ليست خشبا فحسب. إنما هي «خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ» .. لا حركة لها، ملطوعة بجانب الجدار! هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفزع الدائم والاهتزاز الدائم:«يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» .. [88]

"فهم يعرفون أنهم منافقون مستورون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والالتواء. وهم يخشون في كل لحظة أن يكون أمرهم قد افتضح وسترهم قد انكشف. والتعبير يرسمهم أبدا متلفتين حواليهم يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف، يحسبونه يطلبهم، وقد عرف حقيقة أمرهم!! وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان.. إذا هم كالقصبة المرتجفة في مهب الريح إذا كان الأمر أمر خوف

---

[87] في ظلال القرآن (3574/6)

[88] في ظلال القرآن (3574/6)

.

على الأنفس والأموال! وهم بهذا وذاك يمثلون العدو الأول للرسول- صلى الله عليه وسلم- وللمسلمين:«هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» ..

"هم العدو الحقيقي. العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف. وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح. «فَاحْذَرْهُمْ» .. ولكن الرسول- صلى الله عليه وسلم- لم يؤمر هنا بقتلهم، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجيء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل) .. «قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» ..

"فالله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا. والدعاء من الله حكم بمدلول هذا الدعاء، وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه.. وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف.

"ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم، وتبييتهم للرسول- صلى الله عليه وسلم- وكذبهم عند المواجهة.. وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون:

«وإذا قيل لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون. سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين. هم الذين يقولون: (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا. ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون). يقولون:

"لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين. ولكن المنافقين لا يعلمون» ... "وحديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- مع أسيد بن حضير، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام! وأخيرا نقف أمام المشهد الرائع الأخير. مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي. وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل. تصديقا لمقاله هو: «ليخرجن الأعز منها الأذل» . ليعلم أن رسول الله هو الأعز. وأنه هو الأذل. ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فيأذن له. فيدخلها بإذنه. ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل. في نفس الواقعة. وفي ذات الأوان[89].

"ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال. رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر. وهذا هو أجمل وأصدق

---

[89] في ظلال القرآن (3575/6)

ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسيّ تأكل الطعام وتمشي في الأسواق.

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث:

«وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون» .. [90]

"فهم يفعلون الفعلة، ويطلقون القولة. فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله- صلى الله عليه وسلم- جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون بالأيمان يتخذونها جنة. فإذا قال لهم قائل: تعالوا يستغفر لكم رسول الله، وهم في أمن من مواجهته، لووا رؤوسهم ترفعا واستكبارا! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المنافقة. وإن كان هذا التصرف يجيء عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام. ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمان من المواجهة. حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان! ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بما قضاه الله في شأنهم على كل حال. وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله:

«سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ» ..

"ويحكي طرفا من فسقهم، الذي استوجب قضاء الله فيهم: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا» .. وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة. وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان. ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين.

"إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصرة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ويسلموه للمشركين! وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عنه تحت وطأة الضيق والجوع! وهي خطة

---

[90] في ظلال القرآن (3575/6)

.

الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين، ليموتوا جوعا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة! وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق.. [91]

"وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان.. ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: «وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ. وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ» ..

"ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم. فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين! وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم. ويطمئنهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع. والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه. فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق.

"وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرا ولا قليلا لو قطع عنهم الأرزاق! وهو أكرم أن يكل عباده- ولو كانوا أعداءه- إلى ما يعجزون عنه البتة. فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء!... [92]

«وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ» .. وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟

"لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم، ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء:

---

[91] في ظلال القرآن (3580/6)

[92] في ظلال القرآن (3579/6)

.

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ. وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ، فَيَقُولَ: رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» ..

"والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب، ويدرك غاية وجوده، ويشعر أن له هدفا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية. وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان. ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر، ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال «فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ» .. وأول ما يخسرونه هو هذه السمة. سمة الإنسان. فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنسانا. ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء. مهما يملك من مال ومن أولاد.

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة..

«وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ» .. فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم. فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق.

«مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... » .. فيترك كل شيء وراءه لغيره وينظر فلا يجد أنه قدم شيئا لنفسه، وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران. [93]

"ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين! وأنى له هذا؟: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها» ؟ وأنى له ما يتقدم به؟ «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» ؟

"إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة. في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين.

---

[93] في ظلال القرآن (3580/6)

"ولو إذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين.. فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان، وألا يغفلوا عن ذكر الله. وهو مصدر الأمان.. وهكذا يربي الله المسلمين بهذا القرآن الكريم.." [94]

[94] في ظلال القرآن (3581/6)

.

المبحث الثالث – الموضوع القرآني

المطلب الأول – تعريف الموضوع القرآني:

يعد الموضوع القرآني أشهر ألوان التفسير الموضوعي، بحيث « إذا أطلق اسم التفسير الموضوعي، فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه »[95].

وذكر الشيخ فضل عباس أن طريقته المشتهرة أن تجمع الآيات القرآنية في الموضوع الواحد، سواء كانت الآيات مكية أم آيات مدنية؛ قال: فإذا أردنا أن نتحدث عن البر والأبرار، تتبعنا هذا الموضوع في آي القرآن الكريم، فنتحدث عن الأبرار في سورة الانفطار وسورة الإنسان، وغيرهما من السور المكية، ثم نتحدث عن البر في السور المدنية، في الزهراويين وغيرهما، ونقف عند كل نجم في السور القرآنية الكريمة، وهكذا الحديث عن الإنفاق وتحرير الإنسان من الرق، والربا، والصلاة، تلكم هي الطريقة المشتهرة في التفسير الموضوعي[96].

وسبق أن ذكرنا أن نواة هذا النوع من التفسير يعود إلى عصر التنزيل، حين كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه عن بعض آيات القرآن الكريم، فيجيبهم بآيات أخرى من القرآن الكريم.

وتوالى هذا الأسلوب في العرض والدراسة، إلى أن جاء من ألف في أقسام القرآن، ومجاز القرآن، وتشبيهات القرآن، والحق يقال، يطلق على هذا اللون من الدراسات تفسيرا موضوعيا تجوزا[97].

وفي العصر الحديث كانت الضرورة ملحّة أكثر من قبل لتناول هذا اللون من الدراسة، فتوالت الهجمات الشرسة ضد الإسلام وأهله، والنكبات بالأمة الإسلامية، مما دعا عددا من الباحثين إلى تناول عددا من القضايا المعاصرة في القرآن الكريم، فكتب الشيخ شلتوت

---

(95) مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 27

(96) ينظر: التفسير أساسياته واتجاهاته، فضل حسن عباس، مكتبة، دنديس، الطبعة الأولى، 1426هـ . 2005م، ص 646.

(97) الرجع نفسه، بتصرف، ص 648.

"القرآن والمرأة"، و"القرآن والقتال"، وكتب عزة دروزة "اليهود في القرآن"، وكتب العقاد "المرأة في القرآن"، فكانت هذه الدراسات بواكير لتأصيل مدرسة التفسير الموضوعي[98].

المطلب الثاني – خطوات دراسة الموضوع القرآني:

إن دراسة أيّ موضوع في القرآن الكريم يقتضي اتّباع خطوات منهجية رسمها الباحثون المتخصصون في هذا الفن، وأبرزها:

1. تحديد الموضوع القرآني بدقة، بأن يكون قرآنيا فعلا، وواضحا في آياته.
2. اختيار عنوان دقيق للموضوع المختار منتزع من ألفاظ الموضوع نفسه أو معانيها.
3. جمع الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع المدروس.
4. استخراج معاني الألفاظ المتعلقة بموضوع البحث والواردة في الآيات التي تم جمعها.
5. ترتيب الآيات القرآنية من حيث المكي والمدني، ووقت النزول إن تيسر ذلك.
6. تصنيف الموضوع إلى عناصر مترابطة.
7. فهم الآيات بالرجوع إلى مصنفات التفسير
8. استخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات التي تمت دراستها[99].

المطلب الثالث – أثر الوجوه والنظائر في دراسة الموضوع القرآني

من المراحل المذكورة في الفرع الأول استخراج معاني الألفاظ المتعلقة بموضوع البحث، والواردة في الآيات التي تم جمعها، وقد تناولنا هذا في أثر الوجوه والنظائر في دراسة المصطلح القرآني، إذ دراسة المصطلح القرآني يعتبر مرحلة مهمة في دراسة الموضوع القرآني.

ومن العناصر التي يحتاج فيها الباحث إلى الرجوع إلى مصنفات الوجوه والنظائر، تصنيف ألفاظ الموضوع القرآني، حيث تقدم مصادر الوجوه والنظائر الوجوه المختلفة للكلمة الواحدة في القرآن الكريم باشتقاقاتها وتصريفاتها المختلفة، وكل وجه من الوجوه يعد عنصرا في التصنيف الموضوعي، فالخطة المنهجية تقتضي تقسيم البحث إلى فصول ومباحث، ولا يتأتى ذلك إلاّ إذا نظرنا في معاني الألفاظ في جميع مواضعها في القرآن الكريم، وهذا ما تبحث فيه مصنفات الوجوه والنظائر.

---

(98) التفسير أساسياته واتجاهاته، فضل حسن عباس، بتصرف، ص 649 .

(99) ينظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، ص78 – 81.

ولبيان ذلك نتناول مثالا تطبيقيا:

– العفو من الموضوعات التي يمكن دراستها موضوعيا في القرآن الكريم، ومن المراحل الضرورية لدراسته – بعد التعرف على الأصول الغوية للكلمة – معرفة جميع الوجوه الموضعية لكلمة العفو في القرآن الكريم، وإذا كانت مصادر اللغة ومعاجمها تمدنا بالأصول اللغوية لهذه الكلمة؛ فإنّ مصادر الوجوه والنظائر تمدنا بالمعاني السياقية للعفو في مواضعه المختلفة من القرآن الكريم، وانطلاقا من تلك المعاني يستطيع الباحث تصنيف عناصر بحثه.

فالعفو ورد في القرآن الكريم في خمس وثلاثين آية، على خمسة أوجه: "الصفح والمغفرة، التجاوز، الكثرة، الفضل، الترك"[100]؛ إلاّ أن مؤلفي الوجوه والنظائر كعادتهم لم يوردوا في كتبهم جميع نظائر الوجوه الواردة للفظ القرآني، ففي مادة العفو اكتفوا بذكر ثلاث عشرة آية فقط[101].

– ولدراسة موضوع الصدق في القرآن الكريم، تقدم لنا مصادر الوجوه والنظائر الوجوه السياقية لمادة "الصدق" بمختلف اشتقاقاتها وتصريفاتها، فهي تطلق ويراد بها المعاني الآتية: "النبيون، المهاجرون، المؤمنون، المجاهدون[102]، الصدق بعينه، الوفاء بالعهد، التحقيق، القرآن"[103].

وكل وجه من هذه الوجوه نجده في موضع أو أكثر في القرآن الكريم؛ إلاّ أن مصنّفات الوجوه والنظائر لم تورد سوى تسع آيات فقط من أصل ثمان وثلاثين آية في كتاب الله تعالى تتضمن كلمة الصدق أو أحد مشتقاتها.

---

(100) ينظر: التصاريف، يحي بن سلام، ص190. وجوه القرآن، الحيري، ص234. والوجوه والنظائر، العسكري، ص348 –349. والوجوه والنظائر، الدامغاني، ص532–533. وبصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، 80/4. ونزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص427.

(101) ينظر: وجوه القرآن، الحيري، ص234. والوجوه والنظائر، الدامغاني، ص532–533.

(102) ينظر: وجوه القرآن، الحيري، ص201 – 202. وتصحيح الوجوه والنظائر، العسكري، ص277 –278. والوجوه والنظائر، الدامغاني، ص460 –461.

(103) الوجوه الأربعة الأخيرة انفرد بذكرها الحيري، ينظر: وجوه القرآن ، ص201 – 202.

المطلب الرابع – دارسة نموذج لموضوع قرآني

التبعية في القرآن الكريم

هناك موضوعات كثيرة تصلح لتكون نماذج للدراسة، ونكتفي بنموذج واحد تناوله أحد المنظرين لهذا المنهج، وهو الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد في كتابه المدخل إلى التفسير الموضوعي[104]، وهو التبعية في ضوء القرآن الكريم.

المعنى اللغوي للتبعية:

قال الفيروزآبادي: «تبعه: كفرح تَبَعًا وتباعه مشى خلفه، مرّ به فمضى معه، وكفرحة»[105].

ويقول الراغب الأصفهاني رحمه الله :«يقال تبعه واتبعه قفا أثره. وذلك تاره بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**..﴾، ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** ﴾..وتبّع كانوا رؤساء، سموا بذلك لاتباع بعضهم بعضا في الرياسة والسياسة»[106].

احصاء مادة "تبع" في القرآن الكريم:

وقد ورد لفظ (التبع) وما تفرع منه في القرآن الكريم **(مائة وثلاثا وسبعين مرة)** أغلبها في التبعية بمعنى اقتفاء الأثر، وانقياد الإنسان لغيره انقيادا تاما.

وقد جاءت في القرآن بهذا المعنى نحو **(مائة وأربعين مرة)**.

والباقي في مطلق الاقتفاء والإدراك [107].

أنواع التبعية في القرآن الكريم:

يمكن تقسيم التبعية في القرآن الكريم إلى نوعين جامعين:

النوع الأول: التبعية المحمودة :

(104)_المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص161 – 185.

(105)_ القاموس المحيط : ج3 ص 8 .

(106)_ المفردات في غريب القرآن مادة (تبع) ص 72.

(107) المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص161.

وهي التي يكون الاتباع فيها لأمر الله تعالى، وكتبه، ورسله، والصالحين من عباده ولذلك أمر الله تعالى بها، وحث عليها، ومدح التابع والمتبوع من أهلها.

النوع الثاني : التبعية المذمومة :

وهي التي يكون الاتّباع فيها لغير الحق، كاتّباع الهوى، والشيطان.. إلخ. وهذا النوع قد ذمه القرآن ذما بالغا، وتناول أصحابه بالتهديد والتنديد في كل موطن.

وقد جمع القرآن الكريم بين هذين النوعين في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا**﴾ [سورة البقرة/160] .

﴿**اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء**﴾ [سورة الأعراف/3] .

﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [سورة الجاثية/18] .

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**﴾ [سورة محمد/3] [108] .

موقف القرآن التفصيلي من التبعية المحمودة:

فصّل القرآن الكريم حديثه عن هذه التبعية وأنواعها، وعدّد أساليبه في طلبها والحث عليها بين: الأمر بها، والثناء على أهلها، وبيان تفردها بالحقية والصحة ونحو ذلك. وتنحصر هذه التبعية في ثلاثة أقسام:

القسم الأول : اتّباع الوحي الإلهي:

وهذا واجب على الناس جميعا، وعلى **رأسهم الأنبياء** عليهم السلام. وسواء كان هذا الاتباع لدين الله تعالى جملة كما قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [سورة الأنعام/153] . ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [سورة البقرة/38] .

أو كان هذا الاتباع لشئ بعينه من وحي الله تعالى، كالكتب التي أنزلها :

﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام/155] .

---

(108) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص162.

أو بعض الحكام: كعزائم الدين، وفضائله العليا مثل العفو والإحسان قال تعالى : ﴿**بَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ [الزمر/17، 18] .

وقد قرر القرآن الكريم أن هذا الوحي الإلهي هو وحده الخليق بالاتباع ؛ وهذا يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ [سورة يونس/35، 36] .

لذلك يعلن الرسل دائما عجزهم عن الإتيان بهذا الحق من عند أنفسهم، وينسبونه إلى مصدره الأعلى، ويقررون تبعيتهم له قبل غيرهم.

قال تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [سورة يونس/15]" [(109)] .

القسم الثاني : اتّباع الرسل عليهم السلام :

وهو اتّباع مطلق، غير مشروط ولا محدود، لأنهم متبعون لوحي الله، ومبلغون عن الله تعالى، وداعون إلى دينه القيم، لا ينطقون عن الهوى.

وجاء القرآن الكريم بالمعنى الجامع –حين يصف علاقة المؤمنين بالرسل عليهم السلام– وهو: «**التبعية**» التي تدل على ثلاثة أمور:

(1) الإيمان الذي هو المدخل والأساس.

(2) الصحبة (المعية) التي هي فريضة وضرورة.

(3) الانقياد التام في هذه الصحبة، حتى تكون معية مخصوصة، بالغة غاية الطاعة، والتوقير، والاقتداء برسل الله تعالى.

ولذلك سجل القرآن الكريم هذه «التبعية» لرسل الله في كل العصور والأقوام، وجعلها وصفا ثابتا للمؤمنين، مع كل دعوة جاء بها رسول كريم[(110)].

---

(109) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص163-164.

(110) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص165.

طريقة القرآن في تسجيل التبعية للرسل:

وقد سلك القرآن الكريم طريقين في تسجيل هذه (التبعية).

الأول: الطريق الإجمالي العام:

حيث يذكر التبعية لرسل الله تعالى على سبيل العموم والاطلاق، فتعطى بذلك معنى **القاعدة المطردة** في شأن الرسل جميعا، من ذُكِر منهم، ومن لم يذكر، لأنهم جميعا ملّة واحدة، وأمة واحدة، وطريقة ثابتة عبر التاريخ كله، في وجوب التبعية والانقياد لهم.

ومن أمثلة هذا قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**﴾ [سورة إبراهيم/44].

فالظالمون حين يرون عذاب القيامة يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليجيبوا دعو الله التي رفضوها، ويحددون هذه الإجابة في إطارها الوحيد المقبول وهو (اتّباع الرسل)، لأنهم هم الدعاة إلى الله تعالى، والمبلغون عنه رسالاته.

وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى..**﴾ [سورة طه/134]. والمعنى: أن الله تعالى لو أهلك الناس قبل الرسل لاحتجوا يوم القيامة بأنهم لو أرسل الله تعالى إليهم رسولاً لاتبعوا آيات الله التي جاء بها[111].

الثاني : الطريق التفصيلي :

وهو الذي تذكر فيه "التبعية" مقرونة باسم رسول بعينه، فتكون نموذجا تطبيقيا للقاعدة العامة، واثباتا متكررا لها من خلال قصص الأنبياء عليهم السلام...

وهذه طريقة قرآنية معجزة، ولها أثر بالغ في الدعوة والتربية، لأنها تربط المبادئ العامة بتطبيقها العملي، وتثبت معانيها بالقصص التاريخي الوثيق، الذي ترادفت عليه كلمة الرسل، دعوة وطريقة ومنهاجا.

---

(111) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص165 – 166.

وفيما يلي أمثلة تفصيلية متتابعة:

1- تبعية نوح عليه السلام :

يثبت القرآن الكريم (التبعية) لنوح عليه السلام على لسان الكفار أنفسهم، وهو تسجيل بأن الكفار كانوا يعلمون نوع العلاقة بين نوح والمؤمنين به، ولذلك استكبر الكفار عنها ظلما وعلوّا بغير الحق، وقد قال تعالى مسجلا هذه القاعدة من خلال ردهم على رسولهم الكريم : ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ**﴾ [سورة هود/27].﴿**قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ**﴾ [سورة الشعراء/111].

ومن المقرر أن الإنسان لا يعيش في فراغ، فإذا لم يَتّبع في الحق فلابد أن يتبع في الباطل، وقد سجل نوح على قومه هذه التبعية الباطلة حين رفضوا اتّباعه في الحق.

﴿**قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً**﴾ [سورة نوح/21].

2- تبعية هود عليه السلام:

يقرر القرآن الكريم أن عادا قوم هود استحقوا العذاب لأنهم عصوا الله ورسله، ورفضوا تبعية الحق على حين اتبعوا أمر الجبابرة المعاندين من زعمائهم قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ [سورة هود/59].

3- تعبية صالح عليه السلام :

قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ* فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**﴾ [سورة القمر/23، 24].

فقوم صالح يستنكرون ويستكبرون أن يكونوا أتباعا لصالح عليه السلام، وهذا تقرير لمعرفتهم هذه الحقيقة البدهية، لأنها معنى الرسالة أوّلاً، ولأن الرسل دعوا قومهم إليها صراحة ثانيا.

4- تبعية شعيب عليه السلام :

قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ**﴾ [سورة الأعراف/90].

وهذا تسجيل أيضا بأن الكفار كانوا يعرفون نوع الإيمان المطلوب منهم، وأنه يقتضي التبعية والانقياد فرفضوهما استكبارا وعنادا، في الوقت الذي يتبعون فيه أمر زعمائهم الضالين.

5- تبعية إبراهيم عليه السلام :

وفي هذا المقام يمضي القرآن الكريم على طريقته في تفصيل تبعية إبراهيم عليه السلام توصلا إلى إقامة الحجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب.

وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [سورة إبراهيم/35، 36].

فهو عليه السلام يقسم الناس إلى فريقين :

أ- من تبعه فهو منه، وأولى الناس به، وله ولايته ومحبته.

ب- من عصاه فأمره إلى الله، وهو سبحانه لا يغفر أن يشرك به.

وأولى الناس بإبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة هم الذين اتبعوه في دينه وملته وفي ذلك يقول تعالى : ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة آل عمران/68].

بل يقرر القرآن الكريم أمرا دقيقا وجديرا بغاية التأمل حين قص علينا أنه عليه السلام طالب أباه ذاته أن يتبعه في دعوته:

﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً**﴾ [سورة مريم/43].

إن العادة الجارية أن يتبع الابن أباه، ولكن الابن هنا هو الرسول، والرسول ينبغي أن يطاع ويتبع بإطلاق، لأنه يوحى إليه؛ (**جاءني من العلم ما لم يأتك، فاتبعني أهدك صرادا سويا**)

6- تبعية موسى وهارون عليهما السلام :

يقرر الله تعالى التبعية لهما من أول الطريق فيقول: ﴿**أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ [سورة القصص/35].

ويندد أشد التنديد بمن رفض هذه التبعية الصحيحة، ورضى بتبعية الطغيان الباطل: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**﴾ [سورة هود/96، 97].

7- تبعية عيسى عليه السلام :

يقرر القرآن الكريم تبعية أصحاب عيسى له على لسان الحواريين فيقول: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ**﴾ [سورة آل عمران/53].

ويسجل القرآن الكريم وعد الله تعالى لأتباعه: ﴿**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [آل عمران/55] (112).

8- تبعية محمد (صلى الله عليه وسلم) :

يستفيض القرآن الكريم في بيان (تبعيته) عليه السلام، وهي أيضا مثل أختها ضربان :

الضرب الأول: التبعية المطلقة :

وهي التي تكون في شأن الدين والرسالة جملة، لذلك يقررها القرآن الكريم له (صلى الله عليه وسلم) مطلقة، غير محددة، ولا مقيدة، ويكررها القرآن كثيرا في المكي والمدني منه حتى تستقر في نفوس أمته (دعوة واجابة) فتقوم بذلك الحجة على الكافرين، وتصل إلى ذروة اليقين عند المؤمنين، فلا تكون محلا لشبهة أو ارتياب.

قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [سورة الأعراف/157].

آيات آخرى في التبعية المطلقة للنبي صلى الله عليه وسلم:

- قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة الشعراء/215].
- و قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [سورة الأنفال/64] .
- و قال تعالى: ﴿**فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [سورة آل عمران/20] .
- و قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُ**
- **حِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾ [سورة آل عمران/31] (113).

(112) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص166 - 170.

(113) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص171.

الضرب الثاني : التبعية الخاصة :

وهي التي تكون في أمر خاص من أمور الدين أو الدنيا كما فصلنا ذلك في (المعية) ، والأمثلة على هذه التبعية الجزئية في القرآن الكريم كثيرة منها:

1- التبعية في تحويل القبلة إلى الكعبة :

قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ [سورة البقرة/143] .

2- التبعية في الجهاد :

قال تعالى : ﴿**لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾ [سورة التوبة/117].

3 – التبعية في الدعوة:

قال تعالى مخاطبا رسوله بصيغة الأمر أيضا: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [سورة يوسف/108] .

والآية الكريمة مكية وفي سورة مكية وهي تشتمل على أصول أربعة :

1- **المنهاج** : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿**قل هذه سبيلي**﴾ .

2- **الإمام** : وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿**أدعو إلى الله... أنا**﴾.

3- **الجماعة:** ﴿**ومن اتبعني**﴾ والتبعية كما قلنا تدل على ثلاثة أمور : (الإيمان، والمعية، والانقياد التام) .

4- **الطريقة الصحيحة** : وهي قوله تعالى ﴿**على بصيرة**﴾. أي على بصر بالأمور، ومعرفة للحلال والحرام[114].

القسم الثالث: اتّباع الصالحين:

وهو اتباع مقيد بحدود الله تعالى وشرعه، لأنهم غير معصومين من الخطأ والذنوب، لذلك لم تذكر في القرآن تبعيتهم إلا مقيدة بقيد شرعي.

ومن الأمثلة على ذلك :

---

(114) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص172 – 177.

(1) ما جاء في اتّباع الآباء الصاحين: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ [سورة الطور/21].

فقيد التابع والمتبوع بقيد الإيمان صراحة، وبقيد العمل الصالح المفهوم من السياق لأن الكلام في أهل الجنة.

ولذلك أطلقت التبعية عن التقييد إذا كان الأب نبيا كما قال تعالى: ﴿**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**﴾ [سورة يوسف/38].

(2) ما جاء في اتّباع الدعاة العاملين :

قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [سورة غافر/38]. وتبعيته هنا مقيدة بقيد الإيمان، وبقيد الهداية إلى سبيل الرشاد.

(3) ما جاء في اتّباع أهل السبق بالخيرات :

قال تعالى : ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ**﴾ [سورة التوبة/100].

فالقيد في (المتبوع) هو السبق، وأولية الإيمان، والهجرة والنصرة، كلها أوصاف تجعلهم في ذروة الطاعة لله، ولرسوله، ولدينه الحق.

والقيد في (التابع) هو الإحسان، الذي هو غاية الإتقان في العبودية، ومراقبة الله تعالى وإنما جاء القيد في التابع أيضا ليترتب عليه ما بعده من جزاء عظيم: (رضي الله عنهم.. إلخ).

ثانيًا : موقف القرآن التفصيل من التبعية المذمومة:

تحدث القرآن الكريم حديثا شاملا عن هذه التبعية تحذيرا منها، واستنقاذا للناس من شرها. وبتأمل الآيات في هذا نجدها تدور حول قسمين:

القسم الأول : اتّباع الذات في الباطل :

وهي تبعية داخلية، تأتي من انقياد الإنسان لأهواء نفسه، وإيثاره شهواتها الدنيئة، والاستسلام لرغباتها الخسيسة ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ**﴾ [سورة يوسف/53].

ومن هذا اللون اتباع الظنون الفاسدة في العقائد خاصة شأن الجاهليات كلها، كقوله تعالى عن الأصنام وعبّادها : ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى**﴾ [سورة النجم/23] .

كذلك لا مخرج للناس إذا غلبت عليهم الشهوات إلاّ هدى الله عز وجل: ﴿**وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً..**﴾ [سورة النساء/27] .

والآية الكريمة تحذر من الذين يتبعون شهواتهم الدنيئة، ثم يخرجون على الناس بالخديعة فيصورونها لهم : مذهبا، وفلسفة، وفكرة، ويدعون إلى اعتناقها واتباعها، فتصبح الشهوات والنزوات عقيدة ودعوة، يجادل عنها فريق من البشر، ويموت آخرون في سبيلها، وتسخر أمم وشعوب لنصرتها، وبذلك يميل البشر عن الطريق الصحيح ميلا عظيما، لا مخرج لهم منه إلا باتباع الهداية الربانية.

القسم الثاني : اتباع الإنسان غيره في الباطل :

وهي تبعية خارجية، يكون المتبوع فيها ذاتًا أخرى، تزين للناس الضلالة، وقد ندد القرآن العظيم بكل ألوانها وصورها، وتتبعها بالتحذير والإبطال، وأنذر أهلها تابعين ومتبوعين، وأقام عليهم الحجة البالغة، على ما نوجزه فيما يلي:

أ- اتّباع الشيطان :

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [سورة البقرة/208] .

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً**﴾ [سورة النور/21].

ب- اتّباع الأسلاف والآباء :

قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾ [سورة الزخرف/23-24] .

وقال تعالى:﴿**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**﴾ [سورة الصافات/69-70].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة/170]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأنبياء/53-54].

جـ- اتّباع الطواغيت من سادتهم وكبرائهم :

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [سورة هود/59]. وقال تعالى: ﴿ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [سورة هود/97].

موقف الكافرين من تبعية الرسل:

(1) الاستكبار التام عن تبعية الرسل :

- قالت ثمود لنبيها صالح: ﴿أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [سورة القمر/24].

(2) تنفير الناس من الرسول ذاته :

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ [سورة الفرقان/8] .

(3) الظهور بمظهر الحريص على مصالح الأمة والقوم :

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ وقد ردّ عليهم القرآن بقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة القصص/57] .

(4) خداع المؤمنين بالوعود الكاذبة :

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [سورة العنكبوت/12] .

(5) وضع الشرائع والأحكام للناس :

قال تعالى:﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الجاثية/18].

وقال تعالى مخاطبا المؤمنين جميعا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام/153] .

ثم ينذر سبحانه أصحاب التبعية الباطلة، ويحذرهم من سوء المصير: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً**﴾ [سورة النساء/115] [(115)].

جزاء التابع والمتبوع بالباطل:

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ**﴾ [سورة غافر/47-48].

ويقول جلّ شأنه: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ [سورة البقرة/166-167].

جزاء اتباع الحق والهدى:

بالتوفيق في الدنيا من الله ورحمة؛ ومعونته ونصره؛ وسكينة وطمأنينة: ﴿**لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [سورة التوبة/117].

وفي الآخرة: رضوان الله تعالى، وجنته، وفوزه العظيم: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [سورة التوبة/100] [(116)].

---

(115) ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، بتصرف ص177-184.

(116) ينظر: المرجع نفسه، بتصرف ص185.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأشباه والنظائر في القرآن الكريم: مقاتل بن سليمان البلخي. تحقيق عبد الله شحاته. دار غريب، القاهرة، 2001م.
2. بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. تحقيق محمد علي النجار. المكتبة العلمية، بيروت.
3. التصاريف: يحيى بن سلام. تحقيق: هند شلبي. الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1979م.
4. تصحيح الوجوه والنظائر: أبو هلال العسكري. تحقيق محمد عثمان. مكتبة الثقافة الدينية. ط1، 1428هـ - 2007م.
5. تصحيح الوجوه والنظائر: أبو هلال العسكري. تحقيق محمد عثمان. مكتبة الثقافة الدينية. ط1، 1428هـ - 2007م.
6. التفسير أساسياته واتجاهاته، فضل حسن عباس، مكتبة، دنديس، الطبعة الأولى، 1426هـ . 2005م.
7. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: صلاح عبد الفتاح الخالدي. دار النفائس،الأردن ط1، 1418هـ - 1997م.
8. الجامع الصحيح: البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي. تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت. الطبعة الثالثة، 1407 – 1987م.
9. في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق.
10. قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: الدامغاني، أبو عبد الله الحسين بن محمد. تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985م.
11. مباحث في التفسير الموضوعي: مصطفى مسلم، دار القلم. دمشق، ط2 ، 1418هـ - 1997م.
12. المدخل إلى التفسير الموضوعي. عبد الستار فتح الله سعيد. دار التوزيع والنشر الإسلامية. مصر ط2 ،1400هـ - 1991م .
13. المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار فتح الله سعيد. دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط2، 1400هـ - 1991م.

14. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الحديث القاهرة. الطبعة1، 1417هـ 1996م.
15. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، الطبعة1، 1417هـ 1996م
16. المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني. مراجعة وضبط محمد خليل عيتاني. دار المعرفة، بيروت. الطبعة الرابعة، 1426هـ 2005م.
17. مناهج المفسرين: منيع بن عبد الحليم محمود (المتوفى: 1430هـ). دار الكتاب المصرى – القاهرة، دار الكتاب اللبنانى – بيروت. 1421 هـ - 2000 م
18. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم: محمد الغزالي، دار بغدادي للطباعة، الرويبة، الجزائر.
19. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ابن الجوزي، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1، 2000م.
20. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) . تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي. دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - 1415هـ - 1995 م.
21. وجوه القرآن الكريم: إسماعيل بن أحمد الضرير الحيري النيسبوري. تحقيق: جلال الأسيوطي. كتاب ناشرون، لبنان. ط1. 2011م.
22. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم دراسة وموازنة، سليمان القرعاوي، ص80.
23. الوحدة الموضوعية في سورة مريم، حدة سابق، رسالة ماجستير، نوقشت سنة 2003 بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.